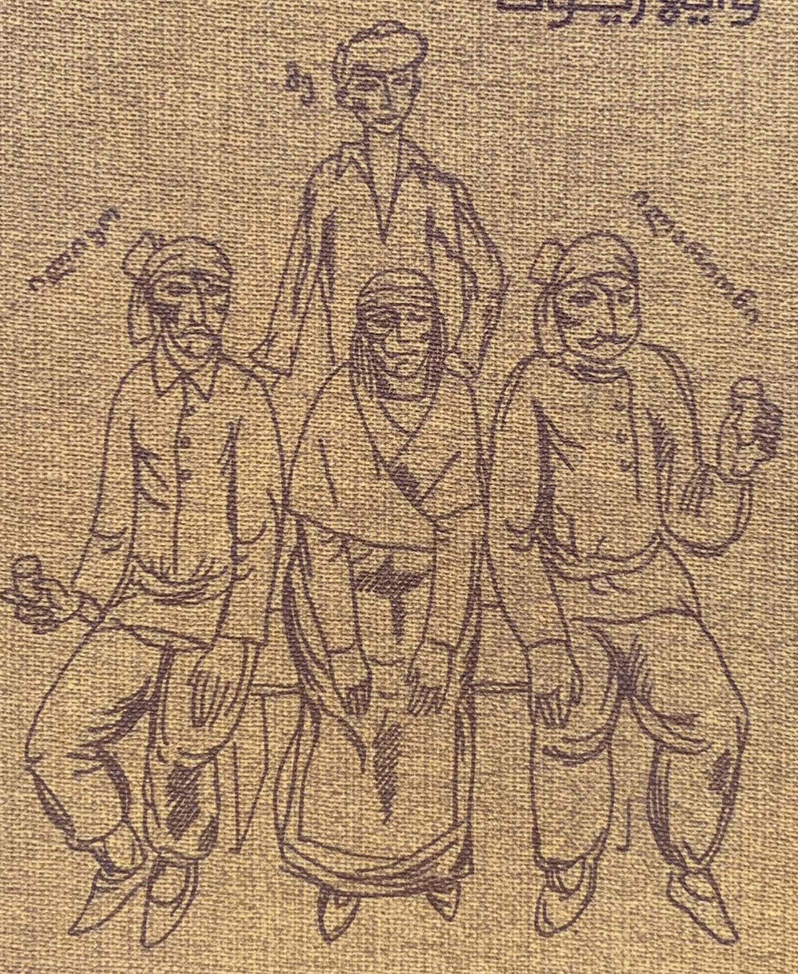
نودار دومبادزه

أنا
وجدتي
وايليكو
وايلاريون










ნოდარ
დუმბაძე
მე,
ბებია,
ილიკო
და
ილარიონი

نودار
دومبادزه

أنا وجدتي وايليكو وايلاريون

رواية



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة جلال الماشطة

Н. Думбадзе

Я, БАБУШКА, ИЛИКО И ИЛЛАРИОН

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

ISBN 5-05-000567-1

الى اليمين من قريتنا ينساب نهر غوبازولى ، والى الشمال منها يمر رافد لاشى الذى يعج بالسرطانات والاسماك والصبية الحفاة . ثمة جسر يمر عبر غوبازولى ، يكتسحه النهر الهائج كل ربيع ، مخلفا ركائزه السوداء مشرئبة من الماء .

بيد انه لا توجد فى غوريا كلها قرية اجمل واكثر مرحا من قريتنا . وليس ثمة فى الدنيا مكان اهيم بحبه ، كما اهيم بحب قريتنا ، اذ لا توجد قرية اخرى اقطنها انا وجدتى وايليكو وايلاريون وكلبى مرادا . . .

جدتى امرأة حكيمة . وهى لا تنفك تكرر بلا كلل :

— ادرس ، يا ملعون ، ادرس والا بقيت جاهلا طول عمرك .

لجدتى رأى فريد فى العلم . كنت مرة جالسا فى الطارمة استظهر بصوت عال قواعد النحو والصرف ، فسألت جدتى :

— ماذا تستظهر يا ولدى ؟

— اوجه الفعل .

— عجايب ! وهذا معقول ؟ وجه الفعل ؟ ! الوجه لدى البشر فقط .

— هذا وجه اخر يا جدة ، غير ما تفكرين بالمرة .

— الوجه فى الدنيا واحد ، وبدون وجع دماغ .

قلت وانا اغلق الكتاب :

— طيب ، اذن ما هو الوجه ؟

— الوجه هو . . . الوجه !

— اجلسى يا جدة . لم تحفظى الدرس ، اعطيك علامة صفر .

— صفر بعينك ، يا ارعن . امش بسرعة اربط العنزة والا اريتك نجوم الضحى .

— طيب ، سؤال اخر ثم امشى . كم عدد الاوجه ؟

— بقدر عدد البشر فى الدنيا . ولكن الخالق لم يعط الوجه لترسم عليه هذه التكشيرة يا صفيق ! الوجوه لدى البعض نحيفة ولدى الآخرين مستديرة ممتلئة ، وثمة وجوه لا تعرف اصلها من فصلها . وهناك المنافقون والدجالون .

— يوجد محتالون ايضا .

— صحيح ! ساعى البريد فى قريتنا ، مثلا . يرفع الطوابع عن الظروف ثم يزعم ان الرسائل دون طوابع ويطالب برويل .

— وماذا عنىّ يا جدة ؟

— انت ؟ انت ارعن وتنبل وصفيق وماجن وطائش وزنديق فوق كل هذا وذاك .

لو فتشتم غوريا كلها لما وجدتم امرأة تجيد صب اللعنات مثل جدتى . بيد اننى لا اخشى لعناتها ، فقد فلت من لسان جدتى مرة قولها : «لسانى يشتمك وقلبى يمنحك البركات . . .»

لجدتى موقف سلبى جدا من القرار المجحف الصادر عن وزارة التربية والتعليم والذى يلزم التلاميذ بالمكوث فى مدارسهم يوميا ست حصص بطولها ، رغم انى شخصيا لم اعطها المبرر لذلك . فانا نادرا ما اكمل الحصة الرابعة . وبعدها افقد كل تصور عن الزمان والمكان ، واتكلم بنبرة اعلى من المعتاد سائلا جارى فى الصف :

— روملى ، ايها العزيز ، لماذا تأخر جرس الاستراحة كل هذا الوقت ؟ هل فقدوا الجرس ام ضاع البواب الذى يقرعه ؟

يبتسم روملى ساخرا ، ويشير اليّ المعلم ببنانه (يشار اليّ بالبنان !) ويزم شفتيه قائلا بصوت حنون :

— انهض فورا واخرج بلا رجعة ! لا اريد ان ارى وجهك حتى تعود مع ولى امرك .

انا لا اسأل عن السبب لعلمى ان نقاشا مثل هذا ينتهى عادة بقذائف من المساطر وقطع الطباشير . لذا آخذ قبعتى وحقيبتى بصمت واتجه صوب الباب ، ثم التفت الى روملى قائلا :

— مع السلامة .

فيرد ملوحا بيده : — الى لقاء قريب .

وفى اليوم التالى اصطحب جدتى الى المدرسة ، ثم تصطحبنى الجدة الى البيت ، واعود مرة اخرى فاصطحبها الى المدرسة ، ثم تصطحبنى هى الى البيت وهلم جرا . يمكن ان نقول دون خوف الوقوع فى خطأ اننا وجدتى انهينا المدرسة سوية . واعتقد انه لم تكن فى تاريخ البشرية سابقة من هذا القبيل .

انا صبى قروى ككل صبيان القرية . حقيبتى لا تخلو ابدا من الفاكهة والمقلاع وسائر اسلحة الصبيان . اظل ارتاد المدرسة حافيا حتى حلول هجمات الصقيع الاولى . لدىّ سروال مرقع واحد ودورتان اختباريتان كل عام ، اذ اننى لا انجز الامتحانات فى الدورة الاولى . كلبى مرادا يتبعنى كظلى كل يوم ، وبسببه كنيت فى القرية بالكلبى ، ويسموننى فى المدرسة التنبل المكاّر ، اما جدتى فقد عمّدتنى بصفة الارعن من يوم خلقت وحتى يوم القيامة . اما اسمى الحقيقى فهو زوريكو .

حينما يستبد الحنق بجدتى اقضى ليلتى فى معصرة الخمر ، وحالما نتصافى اعود الى الحجرة . نهارا تستنزل جدتى على رأسى لعنات السماء وتطاردنى بالمكنسة . ولما يحل الليل تغسل قدمى وتنتظر حتى اغفو لتقبلنى بصمت .

كيف تسير اموري في المدرسة ؟ ثمة وثيقة رسمية بهذا الخصوص هي «محضر اجتماع المجلس التربوي» . وهو مدون على النحو التالي :

«محضر اجتماع المجلس التربوي لمدرسة «س» الثانوية بتاريخ ١٨ آذار عام ١٩٤٠ .

حضر الاجتماع جميع الاساتذة .

الموضوع : تقرير مرشد الصف السادس حول سلوك تلميذ الصف زوراب فاشالوميدزه * .

تحدث في الاجتماع :

مدرس الفيزياء : «ليس ثمة في الطبيعة طاقة بوسعها ان تهز فاشالوميدزه . هذا الصبي كجسم مغمور في الماء ولكن لا تؤثر فيه اية قوة دافعة» .

مدرس الرياضيات : «اعتبر فاشالوميدزه معادلة بمائة مجهول . وانا عاجز عن حل هذه المعادلة» .

مدرس الكيمياء : «لا يعرف اي تفاعل ! طول الوقت يستنزف طاقتي العصبية . انه ورقة كشافة فريدة ، فاللون الاحمر لا يعرف وجهه ابدا» .

مدرس اللغة الروسية : «اعتقد انه الابله» ** .

مدرس الجغرافيا : «معارف فاشالوميدزه بدون تضاريس . ان هذا الصبي كنز مطمور او ارض جرداء»

مدرس التاريخ : «هذا على الارجح انسان من العصر الحجري ولا يمت بصلة الى القرن العشرين المتحضر . ومن المحال ان يسجل المرء اللحظة التي يكون ابانها في حالة استقرار في الدرس . ليس ثمة

---

* زوريكو هو اسم التدليل من زوراب . **المترجم** .

** اشارة الى رواية دوستويفسكي . **المترجم** .

تقدم بالمرة . فاشالوميدزه عار على الصف كله» .
فراش المدرسة : «ما لكم تكالبتم على الصبى المسكين ؟ اذا كان معتوها كما تصورونه فكيف تجعلونه ينتقل من صف الى صف ؟»
معاون المدير : «لم يستمزج احد رأيك . حسبك ان تحضر فى الوقت المناسب وتقرع الجرس» .
مدرس اللغة الجورجية (من اقاربى المقربين) : «انا لا افهمكم ! من يسمعكم يحسب ان فاشالوميدزه هذا وحيد من نوعه فريد فى جنسه ! هل ثمة من هو افضل منه فى الصف ؟ ابن المدير افضل ؟ لديه ارقى العلامات ولكنى لم اصادف احمق مثله فى حياتى ! يجلس فى الصف منفوخا كالطاووس اجوف كالطبل» .
مدرس الرياضة : «لماذا تضع له ارقى العلامات ؟»
مدرس اللغة الجورجية : «ومن يجرؤ الا يفعل ذلك ؟»
معاون المدير : «كفاية ! . . . وماذا تقول انت يا فاشالوميدزه ؟»
فاشالوميدزه : «مدرس اللغة الجورجية على حق» .
معاون المدير : «يا اغبر ! ليس هذا ما اسألك عنه ، ماذا تقول عن نفسك ؟»
فاشالوميدزه : «عن نفسى ؟ سامحونى هذه المرة . وسأكون عند حسن الظن فى المستقبل» .

لما سمعت الكثير من هذه الآراء عن نفسى رحت اشك فى اننى انسان سوىّ سليم ، بيد ان صدفة سعيدة بددت هذه الاوهام .

فقد اضطررت مرة الى التغيب عن المدرسة طيلة اسبوع ، اذ كنت مشغولا بعزق الذرة . وكان ينبغى استحصال اجازة مرضية لكى لا افصل من المدرسة بسبب الغياب . وللاسف لم يكن الاطباء

في قريتنا آنذاك يمنحون مثل هذه الاجازات للاصحاء . لذا فقد لازمت الفراش واستدعي طبيب .

لم يعطونى لقمة منذ الصباح لكى يشحب وجهى وابدو مريضا ، ثم عصب رأسى بمنشفة ، وانطلقت جدتى لتستدعي الطبيب . ما ان مضى نصف ساعة حتى ترجل الطبيب من حصانه وربطه في فناء بيتنا . دخل البيت وقعد على سريرى وسأل :

— ما الذى حصل يا ولد ؟

— احتضر . .

— ممتاز . . وما الذى تشكو منه ؟

فى الواقع لم اكن اتوقع سؤالا من هذا القبيل لذا رفعت عينى الى جدتى متسائلا بهلع ، فقالت :

— يؤلمه كل جسده .

شعرك ايضا ؟

فاجبت وانا ائن :

— يؤلمنى .

فى هذه الاثناء دلف الى الغرفة جارانا ايليكو وايلاريون ، وكانا على علم «بمرضى» فادليا بدلوهما ، اذ قال ايلاريون :

— اخذت الاحظ فـى الاونة الاخيـرة ان الصبـى منهك .

— وبالتحديد ؟

— بالتحديد ؟ لم تعد له شهية . آخر مرة حملته بالكاد على ان يأكل ثلاثة صحون من الفاصوليا ورغيف خبز . ولم يتقبل لقمة عداها .

استغرب الطبيب وتساءل :

— معقول ؟

— اقسم برأسك ! سابقا كان يأكل الفاصوليا والخبز ثم يتبعها

بقطعة جبن كبيرة ، اما فى ذلك اليوم فقد عاند قائلا «لا اريد ، ما عندى شهية» وقال انه تغدى فى البيت .

سألنى الطبيب :

— هل يقول الحقيقة ؟

— عين الحقيقة يا دكتور . حالما ارى الفاصوليا اشعر بالغثيان .

— ايه . . وما رأيك بدجاجة محمرة مع فلافل ، او قطعة جبن طازج مع النعناع ، او بدجاجة مسلوقة مع الخضرة او ، يا نور عينى ، بصحن كباب او سمكة طازجة مقلية مع الطماطم ، ماذا تقول ؟

غمغمت جدتى :

— هذا الاحمق سوف يطيّر عقل الولد .

لم يحتمل ايليكو هذه القائمة من الاطباق ، فسعل ثم انفلت خارجا الى الطارمة . اما ايلاريون فقد صمد للاختبار واخذ يتصفح البوم الصور .

— هل يؤلمك شيء اخر ؟ — سأل الطبيب مبتسما ، ثم نزع العصبة عن رأسى ومسح بها لعابى بحنان . فرد ايلاريون :

— انه يسعل ايضا .

— وماذا عن ادراره ؟

اسقط فى يد ايلاريون ولم يحر جوابا فسأل ايليكو الذى عاد ادراجه .

— الادرار ؟ — كان ايليكو اكثر لباقة ، — بصراحة لا يعجبنى ادراره فى الآونة الاخيرة .

— وهل كان جيدا فيما مضى ؟

— رائع !

— هل تشكو من شيء اخر يا ابو الشباب ؟

سعل ايليكو وقال :

— انه . . . ثمة شيء . . — ثم لوح بيده قرب رأسه لكى لا يبقى اى مجال للشك .

ولم يخف عليّ مقصده .

— حقا ؟ . . طيب كم اصبعا ترى ؟ — سأل الطبيب وفرد اصابع يده وادناها من انفى .

— سبعة . — قلتها وانا ارسم ابتسامة بلهاء على محياي . فهتف الطبيب :

— مضبوط !

سقطت النظارة من يد ايلاريون لفرط دهشته ، وتراجعت جدتى هلعة . قلب الطبيب جفنى ثم اعاده لوضعه ، وكرر العملية ثانية . وحدج فى عينى وهز رأسه بأسى وتساءل :

— هل يتعرف الى اهله واقاربه ؟

فندت عن ايلاريون حسرة وقال :

— بصعوبة .

اشار الطبيب الى ايليكو وهو يسألنى :

— طيب . . . من هذا الانسان ؟

— هذا ليس انسانا ، انه وحش .

قلت ذلك واضفيت على تقاسيم وجهى سيماء الهبالة ، بشكل لم يكن ليتوقعه ايليكو .

— زوريكو ، هذا انا ، عمك ايليكو ، أحقا لا تعرفنى ؟ — تساءل ايليكو متحسرا . هززت رأسى نافيا وبحلقت متطلعا الى ارنبة انفى .

كزت جدتى على شفتها السفلى واسندت رأسها براحتيها .

سأل الطبيب :

— هل تعطونه دواء ؟

— مسحنا صدغيه بالعرق .

— اجلبوا شيئا من هذا العرق .

خفت جدتي مسرعة وجلبت قنينة العرق .

— اعطوني قدحا كبيرا .

نفذوا الطلب ، فاترع الطبيب القدح وطفق يقول :

— الطفل في وضع خطير للغاية ، واخشى انه سيلفظ انفاسه قبل حلول الصباح . ينبغي اخذه فورا الى المستشفى لاجراء عملية .

قفزت من الفراش وصحت :

— اية عملية ؟

— عملية فتح دماغ .

صرخت جدتي :

— أموت ولن تفعلوها ! «فتح دماغ» . هل الدماغ بطيخة ؟ هل تحسب انك تفهم في العلل شيئا ؟ الصبي معافى كالثور ، وانت تريد ان تأخذه للمستشفى ! انهض يا ولدي ، انهض ، والا فانه سيأخذك للقبر حقا .

— والحمد لله ! تقولين انه معافى ؟ الله يعطيكم العافية اجمعين .

قال الطبيب ذلك واحتسى القدح حتى الثمالة .

فانبرى ايلاريون يقول :

— والمازة ؟ — ثم ناوله كمثرى .

قضم الطبيب الكمثرى متلذذا ومتمطقا بها ، وربت على خدي ثم ودع الجميع واتجه نحو الباب قائلا :

— حقا ليس ثمة في القرية صبي اوفر صحة من هذا !

ثم امتطى حصانه ولوح بيده وانطلق . . .

الصيد

بعد اسبوع من معجزة الشفاء دلف ايلاريون الى فنائنا . استلقى على العشب تحت شجرة الكمثرى ولف سيجارة وطفق يمتص الدخان بتلذذ وسأل :

— هل انتهت العملية يا كلبيّ ؟

— الامر لديكم سيان ، فى حين اننى كنت عند حافة القبر !

— عجايب غرايب ! «قبر» وخلافه . وهل كان ثمة خطر يهدد حياتك ؟ لو فتحوا دماغك المتعفن لاغلقوه فورا . فهل هناك طائل من البحث فى فراغ ؟

— خلصّنا يا رجل . . «فراغ» . . وكأن دماغك ودماغ صديقك ايليكو كنز سليمان .

سكتنا . . .

— لم نعد نرى كلبك ؟ — سأل ايلاريون ، وفى اللحظة ذاتها تعالى هرير كلب مسعور ، وكأنه يرد على تساؤلات ايلاريون .

— ساقتل هذا الحيوان ، ساجهز عليه ! حلت عليك اللعنة يا زوريكو يا سافل ، انت وكلبك ! من اى وحلة انتشلت هذا المخلوق النغل ؟ ! هل فعلها غير هذا الكلب ؟ بدأ بسرقة البيض من تحت الدجاجة ثم جاء الآن دور الكتاكيت .

كانت الجارة يفروسينه تحجل فى ممر بين الاسوار وهى تولول بصوت عال وتلوح بهرواة ، متابعة كلبى المسكين مرادا الذى كان يعدو امامها وهو يهر متوسلا ويجرجر قائمته .

تناهى عويل زوج يفروسينه من فنائهم وهو يصرخ :

— امسكوه .

انفلتت جدتى من البيت قائلة :

— ما لك ملأت الدنيا صراخا يا امرأة ؟ ماذا حصل ؟ من هذا الذى تنعتينه بالمخلوق النغل ؟ كلبنا مرادا ؟ ان نسبه ، يا بنت الذين ، اشرف من نسب زوجك واقاربك اجمعين . . اغربى عن وجهى قبل فوات الاوان . هو النغل ؟ لقد اعطيت الطحان سيمون مقابله كل ما صنعت من جبن بعد ان حلبت البقرة مرتين .

للتو عادت يفروسينه ادراجها ، وكانت تخشى جدتى اكثر من اى شىء على وجه البسيطة ، واستلقى مرادا عند قدمى وهو اشبه بعزيز قوم ذل . وظل يهر متأوها وعيناه معلقتان بيفروسينه التى اخذت تتوارى عن الانظار . وخلد الكلب الى الصمت حالما اختفت المرأة وراء المنعطف . حيا ايلاريون الكلب قائلا :

— مرحبا مرادا !

— اهلا ! — رد مرادا فى دخيلته وهز ذيله مرحبا .

— يا لك من شيطان ، من سلالة ابن آوى — قال ايلاريون ذلك مبتسما وهو ينتضى من فم الكلب زغب الكتاكيت وواصل : — لماذا اكلت العلقة ؟

— لا يعرف الا الله — رد مرادا فى دخيلته — يتركون الكتاكيت فى الشارع بلا رقيب ثم يزعلون اذا حصل شىء . .

— اوجعوك كثيرا ؟

— ليس قليلا — رد مرادا فى دخيلته وتطلع الى قائمته المرضوضة .

— هوّن عليك ، سوف تبرأ . . .

— ليس الالم ممضا كما ارادت يفروسينه ، — قال مرادا مبتسما وهز اذنيه وشرع يلعق يد ايلاريون ، الذى توجه اليّ بالسؤال :

— ماذا حصل لبوزه ؟

— اكتوى الاهبل . عنّ له يوم امس ان يسرق من المقلاة

رغيفا فاكتوى انفه بالنار .

— أيصدق يا مرادا ؟

— ايه ، لم يحالفنى الحظ هذه المرة ، استعجلت قليلا ، — قالها مرادا متحسرا ولعق شفتيه .

فرد ايلاريون باحترام :

— يا اخى لستَ كلبا ، بل كنز . تطلع الى هذا الكلبى ، شب عملاقا يناطح السماء وما زال عالة على جدته ، اما انت فتدبر حالك بنفسك . عفارم ! ولكن السرقة عيب ، تذكر ذلك دوما ! لقمة الحرام لا تهضم . خذ مثالا مدير المستودع فى قريتنا داتيكو لا اطال الله عمره . كان نهما لا يشبع . وها هو الآن طريح الفراش كبضاعة كاسدة . سامع ؟

اعترض مرادا فى دخيلته :

— سامع ، سامع ، لكن هذا كلام ! الكل يسرق ، وهل انا ملاك منزّل ؟ انا ، على اى حال ، كلب ككل الكلاب .

قلت :

— طيب اذهب الى مكانك ولا تفكر فى الهرب من الفناء والا اشبعتك ضربا يا ابن الكلب ! — وضربته بقدمى متحاشيا ايلامه .

— لا تشتم — رد مرادا علي مكشرا عن انيابه ثم لوى ذنبه وانكفأ عائدا . . .

لف ايلاريون سيجارة ومص الدخان وقال :

— طفت صباحا فى حقول الكولخوز ووجدت ان عسالج فول الصويا مقضومة فى كل مكان ، لا شك ان الارانب سرحت هناك . . . شاهدت الاثار . . . اعتقد لاضير من الذهاب الى هناك صباح غد ولنأخذ معنا البنادق .

— اعرف ارانبك ! فى المرة السابقة أخذتنى الى هناك واتضح انها لم تكن آثار ارانب ، بل آثار ماعز .

ــ اما الآن فاؤكد لك انها آثار ارانب ! ثم انى وجدت بعر ارانب .

ــ طيب ، نروح . ولكن خذ بالك اذا كان البعر ايضا بعر الماعز .

ــ لا تعلم الحكيم ، يا زنيم ! جهز البندقية صباحا واصطحب كلبك الغبى ، فقد ينفع . . . ــ قال ايلاريون ذلك وانزل قبعتى على انفى وذهب .

ما ان طلع فجر النهار التالى حتى كنا سائرين نخوض الحشائش السامقة الندية التى تطال الركبة . ايلاريون فى المقدمة وانا فى اثره يتبعنى مرادا وقد ابتل جسمه ولصقت به العسالج . قال ايلاريون متهكما :

ــ ياله من كلب ! يبدو انه اعتبرنا ارانب فأخذ يتعقبنا . قل له ان يسبقنا .

ــ الى الامام ! ــ صرخت للكلب فانصاع وجلس .

ــ تعب الكلب . اما حان لنا ايضا ان نأخذ قسطنا من الراحة ونأكل لقمة ؟ ــ سأل ايلاريون واقتعد الارض .

ــ فكرة جيدة . لنسترح . ــ قلت ذلك وجلست الى جانبه .

اخرج ايلاريون من كيسه دجاجة مسلوقة وخبز الذرة وجبنا طازجا وقنينة عرق العنب ووضع ذلك كله على حجر دائرى كبير . ولم اكن خالى الوفاض ، فأضفت الى المائدة خضرة مخللة وفاصوليا وبطاطس مسلوقة وملحا . وشرعنا نأكل الزاد .

حذرته قائلا :

ــ اياك ان تتمطق بصوت عال والا هربت الارانب .

غضب ايلاريون :

ــ على من تضحك يا بومة ؟ الارانب هنا كثيرة كالدود وما عليك الا ان تبحث عنها بحذاقة .

اترع القدح بالعرق وهو ينطق عبارته المعهودة «صحة» وكرع الكأس .

اجبت «صحتين» وشربت كأسي .

— كل شيئا والا احترقت !

— شوف غيرها ! كأنما لم نر حثالة !

— يا نذل ! ابحث عن الحثالة عند جدتك ! . . لنشرب كأسا أخرى .

قلت «طيب» موافقا بسرور ، وشربت فدب فيّ دبيبها فورا فواصلت : — تمزقت احشائي وتفصد جبيني عرقا .

— طبعا ، ما هو عرق !

— لنشرب قدحا ثالثا .

— نشرب !

افرغ ايلاريون القدح بسرعة واخرج كيس التبغ ، فمددت له كيسا مليئا وقلت : — خذ ، جرب من تبغي ، انه اصيل ، اسطمبولي .

اخذ ايلاريون الكيس وشم التبغ ورمقني بنظرة مستريبة ولكنه لف سيجارة واشعلها ومص الدخان ثم . . . انهبد على ظهره .

هرعت اليه متسائلا «ما بك يا ايلاريون ؟» . كان مستلقيا شاحب الوجه مبحلق العينين صامتا . صرخت بالكلب :

— مرادا ، اسرع بالماء — ولكن ايلاريون هز رأسه رافضا ، ونهض متثاقلا وظل يتطلع اليّ طويلا بعينين حمراوين ، ثم تنهد عميقا وسأل بصوت مَنْ حكم عليه بالاعدام :

— من اين جئت بهذا التبغ ؟

— هدية من ايليكو . ماذا حصل ؟

اترع ايلاريون القدح ومسح دمعة ثم افرد يديه للسماء وقال مبتهلا ببطء :

— يا قادر على كل شيء قدير ، لا ترحم اى نصاب ونذل

على وجه البسيطة ! انزل على ايليكو تشيغوغيدزه عذابا يجعله يتلظى في نار جهنم ، وما من احد يمد له يد العون سواي . آمين .

— ماذا حصل يا عم ايلاريون ؟

— التبغ مخلوط بفلفل .

— فلنشرب اذن كأسا رابعة ولينزل عقاب ربنا بايليكو ! — شربت وداهمتني رغبة في ان اقبل انف ايلاريون الطويل .

— ايلاريون ، يا عمي العزيز ، انت خير من في هذا العالم . لو علمت مدى حبي لك ! لك انف طويل وقلب طيب . لولاك لما كان هناك ما يشدني الى الحياة على وجه الارض . صدقني يا عم ايلاريون . اسمح ان اقبلك .

— بصراحة ، يا عزيزي زوريكو ، لم يشهد العالم صبيا مثلك . ليس مهما انني اكبرك بثلاثين عاما . الم اكن من اترابك ؟ كنت . الن تكون من اترابي ؟ طبعا . فما هو الفرق بيننا ؟ لا فرق ابدا . هل ثمة اهمية لعدد الشعرات على الرأس ؟ كلا . نحن صديقان ولذا فلنشرب .

انطلقت اغني اغنيتنا الجورجية الشعبية :

«. . . انا بين الخلان حزين . . .»

فتساءل ايلاريون :

— من هو «الحزين» ؟ ماذا يحزنك ايها العزيز ؟ هل اغاظك احد في المدرسة ؟ اذن احفر في دماغك : سوف احرق مدرستكم اللعينة ! او قد يكون احد عاداك ؟ ما عليك سوى ان تبلغني اسمه .

وهز ايلاريون بندقيته .

— هيا اطلق يا ايلاريون ! ليعرف العالم كله اننا هنا ها هووو . . . !

ضغط ايلاريون على الزنادين ، فدوّت الاطلاقات . ظل الصدى ،

كالطير الحبيس فى قفص ، ينداح طويلا من جبل الى جبل ، ثم انفلت ، كطائر وجد منفذا ، وابتعد الى جهة ما . . .

. . . لسعني البرد فاستيقظت وفركت عيني وتطلعت فيما حولى . يبدو ان مرادا اجهز على فطوره منذ امد بعيد ونظف المائدة وراح الى مكان ما .

ايقظت ايلاريون فتبرم :

— لا تقف عند رأسى كالحارس . وابعد البندقية لخاطر الله ، فقد يعن لك ان تطلق ، وحينها خذ الحذر ، ساهشم انفك البغيض .

— ساتجول قليلا ، فقد اعثر على ارنب .

ابتعدت فصرخ ايلاريون فى اثرى :

— امش يا ولد . . اذا اطلقت النار فلا تنس ان تغمض عينك اليسرى .

ما كدت اقطع عشر خطوات حتى سمعت ايلاريون يصب لعناته :

— الله يأخذ عمرك يا كلب ، يا وسخ . نتَنَ انت ولست كلبا . هل تتكاسل عن النباح ايها الخنزير اللعين ؟

هرعت اليه والبندقية فى يدى وتساءلت :

— ما الذى حصل يا ايلاريون ؟

— تفضل ، تفرج ، — قال ايلاريون ومد لى راحته فوجدت فيها بعرات ارنب سوداء .

— ما زالت دافئة ، أتفهم ؟ — قال ايلاريون وهو يئن وراح يسحقها بغيظ وواصل — الارنب كان هنا قبل هنيهة ، كلبك اللعين لم يشم حتى رائحته .

— اين التقطت البعرات ؟

— . . . اقول لك هنا وجدتها ، على بعد خطوتين ! امش بسرعة ، انت من ناحية الشمال وانا اترصده هنا ! لا يمكن ان يبتعد الارنب كثيرا .

شددت الزناد وارتقيت الرابية ببطء . سرعان ما شاهدت عسالج فول الصويا المقضومة واثار ارنب ، تقفيتها فوجدت انها تؤدى الى حرش جوز كثيف . طفت حول الحرش عدة مرات ثم ركلته بقوة فانفلت ارنب فجأة من هناك ، ارنب حقيقى ، باذنين طويلتين ، وعينين زائغتين وعلى ظهره خط ابيض . صرخت كالملسوع «امسك» ، ثم اطلقت النار . لمّ الارنب اذنيه بطريقة مضحكة وانطلق يعدو الى الاسفل كالسهم . فصرخت :

— ايلاريون ، لا تدعه يفلت .

— انا هنا لا تخف .

للحظة ساد صمت كصمت المقابر ، ثم تناهى اليّ صوت شد الزناد ، وبعدئذ سمعت ايلاريون وهو يبصق بصوت عال ، ثم تأوهات وحشرجات ، وفجأة تعالى صوته :

— امسكه ، امسكه ، زوريكيلا ، انه يركض فى اتجاهك .

اقعيت ورفعت البندقية . . . وعلى حين بغتة دوت من مكان ما فى الاسفل اطلاقة ، اتبعتها اخرى ، وفى تلك اللحظة تعالى هرير كلب يقطع نياط القلب . علت غشاوة عينى ، وارتخت ساقى فانهبدت على الارض صامتا . . .

— مرادا ، عزيزى ، انظر اليّ — قبلت جروى الامين وطفقت انتحب بمرارة .

قال ايلاريون وهو يكفكف دمعة :

— لا تبك يا ولدى ، شد حيلك .

فتح مرادا عينيه وتطلع الينا .

كنا نبكى نحن الثلاثة : انا وايلاريون ومرادا .

— هل تشعر بالالم ، مرادا ؟

— جدا — تأوه الجرو المسكين .

هتف ايلاريون :



— لماذا لا تنشلّ يدى ولا تعمى عينى ؟
— لا بأس عليك ، ايلاريون ، لا تكترب . . . لم تكن متعمدا ، بل سكران . . . ثم انى اعرف بندقيتك : تطلق النار على العدو فتصيب الصديق . . . اتذكر انك قتلت كلبك بالطريقة ذاتها ؟ . . لذا لا داعى للغم . . . انا ما زعلان عليك . . . كل ما يثير غيظى ان يفروسينيه ستشعر بالسعادة ! خلها تسعد — قال مرادا ذلك كله فى داخله وشرع يمسح بوزه بحنان بركبة ايلاريون .

فتحسر ايلاريون :

— هذا يسمى كلبا وايليكو يسمى آدميا ؟ اين الانصاف يا ناس؟

انحنيت نحو مرادا وقلت :

— مرادا ، شد حيلك يا اعز الاصدقاء ! اصبر قليلا !

— لا يا اخى ، احوالى زفت . . . كيف تقولون انتم البشر ؟ «جرح كلب ويلتئم» . ولكن ها انا احتضر . . احتضر يا زوريكيلا .

توسل ايلاريون اليه :

— شد حيلك ، مرادا ، شد حيلك . . ابق كلبا شجاعا حتى النهاية .

— انتم البشر لا تكتفون بالحزن ، ما ان يموت احدكم حتى تدفنوه وتبكوه . . ونحن من يدفننا ؟ لا احد ! اذا ووری احدنا التراب فلسبب واحد : لكيلا تشموا نتن جيفتنا . . — سرت الرعشة فى جسد مرادا ، فصرخت :

— ايلاريون ، عونك ، مرادا يحتضر .

«وداعا» . . القى مرادا علي النظرة الاخيرة واسبل جفنيه وهمد .

— مات ، لتشل يدى — همس ايلاريون ومسح دموعه بكمه . .

. . . ولولت جدتى وتصاعد عويلها فملأ القرية كلها وأثارها .

هرع الجيران مذعورين ، ولما علموا ماهية الامر ثار سخطهم :

— ما لكم فقدتم عقولكم يا اولاد الاوادم ؟ عملها احد

قبلكم ؟ تثيرون كل هذه الضجة بسبب كلب نفق ؟ اما عائلة غريبة ! وتفرقوا . .

ظل ايلاريون النهار كله يطوف كالقاتل قبل تنفيذ حكم الاعدام . ندهنى عند المساء وقال :

— يجب ان ندفنه . . ها هنا ، تحت شجر الدُلب .

حفرنا سوية حفرة وارينا جثمان صديقنا الشهيد مشيعينه بمهابة . بعدئذ طلبت من جدتى جرة نبيذ واقمنا لمرادا مأتما عند قبره .

رفع ايلاريون النخب الاول :

— زوريكو ، ولدى ، اجتمعنا هنا ، عند هذه المقبرة اليوم لمصاب اليم . لقد فقدنا صديقنا ورفيقنا العزيز مرادا . كان دوما وفيا لنا كالكلب ، واذا كان ثمة جنة للكلاب فى الآخرة ، فان ابوابها ستكون مشرعة امام مرادا . ستبقى ذكراه النيرة فى قلوبنا الى الابد . نم قرير العين يا مرادا ! لنشرب .

— شكرا ايلاريون . . . لنشرب .

— اريد ان اشرب النخب الثانى فى صحة اهل المرحوم واقاربه .. اتمنى لك السعادة والتوفيق ، وان يكون هذا المصاب الاخير فى عائلتك .

— شكرا ايلاريون .

. . دخلت كلبة سوداء الفناء متلصصة ، وطافت حول قبر مرادا عدة مرات ثم اقعت فى ركن ناء وهرت متوجعة . قال ايلاريون :

— وصلت النادبات .

— هذه كلبة سيمون الطحان ، انها ام مرادا .

— سبحانك يا رب ! تعالى هنا يا كلبة .

اقتربت الكلبة من ايلاريون فرمى لها بقطعة لحم ، لكنها لوت بوزها وانطرحت ارضا ، فقلت :

— كلبة ولكن لديها احساس .

— صحة ام مرادا وابيه ! صحتك يا كلبة ! انا المذنب ، لاطال عمرى — قال ايلاريون ذلك وشرب . شربت انا ايضا .

دلف الى الفناء اربعة كلاب ، واحداً تلو الآخر . فتساءل ايلاريون :

— انظر هذا كلب اسالو . . . وهذا كلب داتيكو . . . وتلك لديسبينه . . . وهذه لماكى . . . واين يا ترى كلب ماتريونا ذو الرأس الكبير ؟ لماذا لم يأت ؟

— كان متخاصما مع مرادا . البتهما على بعض فى العام الماضى . فعضه مرادا عضة موجعة .

— وقرر ان يصفى الحساب الآن ؟ تف على هيك كلب . لا شرف له ولا ضمير . تفو !

تناهى صوت عند السياج :

— يا صاحب الدار !

— من هناك !

— ممكن ؟

— تفضل !

دخل الى الفناء صبى فى السابعة هو ابن ماخـــارى غوغيتشايشفيلى ، فسأله ايلاريون :

— ما وراءك يا بنى ؟

— برقية باسمك .

— هاتها !

مد الصبى يده بالبرقية . اخرج ايلاريون من جيبه النظارة متمهلا ، ومسحها بالمنديل بتؤودة ، ثم وضعها على ارنبة انفه وشرع يقرأ :

— «برقية مستعجلة . الى زوريكيلا الكلبىّ وايلاريون ابى المناخير . اقبلوا احر التعازى للمصاب المفجع الذى حل بمرادا العزيز . اذرف

واياكم دموع الاسى لهذا الخطب الجلل . حزنى بلا حدود ، ولا اعرف هل سأبقى بعد هذا على قيد الحياة . يحز فى قلبى اننى لن استطيع حضور العزاء بنفسى . لا اعرف كيف اواسيكم . حلت عليكما اللعنة ، يا اغبى خلق الله ! حينما تنويان صيد الكلاب فى المرة القادمة خذانى معكما من كل بد . اقبل كلا منكما فى جبهته .

صديقكم المفجوع»

— بدون توقيع ، من عساه المرسل ؟ — قال ايلاريون وخاطب الصبى — تعال هنا يا بنى . تعال لا تخف .

اقترب الصبى ففرك ايلاريون اذنه فركة جعلت الصبى يصرخ كصفارة مصنع الشاى القريب .

— من اعطاك البرقية ؟

— لن اقول ، سيقتلنى !

— لن تقول ؟ اذن سأقتلك انا ! اختر — قال ايلاريون وارتفع الصفير مجددا .

— ايليكو تشيغوغيدزه اعطانى ثلاثة روبلات وامرنى ان انقل البرقية والزم الصمت والا قطع لسانى .

— ايليكو اذن ؟

— ايليكو .

اطلق ايلاريون سراح الصبى ودق صدره بقبضته :

— يا ويلك يا ايها الشيطان الاعور ! سوف اريك نجوم الضحى .

شعرت ، مخلصا ، بالاسى لمصير ايليكو .

حل الليل ، ليل ريفى اعتيادى . كان السكون والطمأنينة يلفان كل ما حولنا ، وكأن عائلتنا لم تفقد واحدا من ابنائها فى ذلك اليوم .

العين بالعين

انهيت السنة الدراسية الحالية وما زال فى ذمتى امتحان اللغة الروسية . اخذت ارتاد دار المعلمة مرتين فى الاسبوع ، على ان ندفع لها المكافأة عينيا : نصف بود* من الفاصوليا ، واربعة رؤوس جبن وبود خمر من المحصول الجديد . وتبدو هذه الاتاوة تافهة مقارنة مع العام الماضى حيث كان عليّ ان اعيد امتحان اللغة الروسية مرتين .

كان يومى الدراسى يبدأ بالشكل التالى :

— انهض ، انهض ، يا تنبل ! كفاك نوماً ، ستتأخر — هذا صوت جدتى من الفناء . وللتو كنت اقفز من الفراش واهرول فى الغرفة عدة مرات مطقطقا بحذائى ، وانقل الكراسى من مكان الى آخر مثيرا ضجيجا عاليا ، ثم اعود متلصصا الى الفراش واندس تحت الملاءة واواصل نومى . اما النهوض الكامل فكان يتم عندما ينصب على رأسى المسكين دلو ماء بارد ممزوج بالشتائم واللعنات المنفلتة من لسان جدتى .

— على من طلعت تنبل وطائش ؟ عسى ان تنشق الارض وتبتلعك يا عديم الضمير .

— ماذا تريدين منى ؟

— اريد موتك يا سافل ! بودى ان ادفنك الى جوار مرادا واندبك بالروسية . اى نعم ، بالروسية يا ارعن ! تعتقد اننى لن اتعلمها ؟ روسيا كلها تتكلم الروسية ، وانت وحدك غبى لا ينصلح ! هات اسم فرد من عائلتنا لا يعرف الروسية سواك . حسرة على جدك المسكين . امضى سبع سنوات فى روسيا واتقن الروسية احسن من مدير البريد ايفان نفسه .

قلت متعجبا بلغة روسية مهلهلة :

---

* يعادل البود ١٦،٣٨ كيلوغرام . **المترجم** .

— اجايب جرايب !

— اجل ، اجل ولا تبحلق فيّ . ظل المرحوم ساعتين يتكلم مع ايفان وايفان يسمعه فاغرا فمه ، ثم استدار وقال للناس انه لم يسمع طيلة حياته احدا يتكلم الروسية بهذا الشكل . هكذا بالضبط .

— مصطحيل ! — قلت متعجبا وانا اسمع ازيز المقشة المعهود ، ثم الوذ بالفرار متجها صوب دار المعلمة .

وبعدئذ كنت اقف امام المعلمة زابلونا :

— السلام عليكم !

— مرحبا . ماذا ستفعل اليوم ؟

فأرد بلغة هى مزيج من الروسية والجورجية :

— اليوم ؟ انجز تنظيف حقل الذرة من الاعشاب ، ثم خذ البقرة للرعى ، ثم اذهب الى المطحنة ، ثم اقطع الاخشاب ، ثم الدروس .

— ماشى الحال — تباركنى المعلمة ، فاشرع بالدروس ، وبعد الظهر تبدأ مراجعة الدرس المنجز :

— كيف الذرة ؟

— كل شيء تمام ، يا ابلة .

— رحت للمطحنة ؟

— رحت يا ابلة .

— اوردت البقرة ؟

— اوردتها يا ابلة .

— والحطب ؟

— يكفى لاسبوع .

— ما هو النحو ؟

— هو علم الاعراب .

— صح ، عفارم ، اما انت شاطر ! طيب هرول للبيت .

ذات صباح كنت على اتم العدة للدروس ، ولكن ايليكو هلّ على دارنا .

— اولغا ، عزيزتى ، اعيرينى اليوم حفيدك زوريكيلا .

— هيك ؟ وانت ستعلمه اللغة الروسية ؟

— اذا كنت تقصدين اللغة التى تعلمه اياها زابلونا ، فانا لست اسوأ منها . ساجعله يطهر حقل الذرة ويشتغل بالمعزقة حتى يتكلم الصينية ! ولن اخذ عن ذلك فاصوليا ولا خمرا .

— انقطع لسانك يا ابليس الاعور ! اريد ان اعرف فقط لاى غرض تريده ؟

— هذا ما لا يخصك يا عزيزتى ، اسمحى له . .

— طيب ، يا لعين ، رح مع الاعور ، ان شاء الله تنفقس عينه الثانية . لنر ماذا سيعلمك .

— الى اليمام — قال ايليكو بالروسية وانطلق بخطى ثابتة الى البوابة . سألته :

— ماذا هناك يا ايليكو ؟

— لدى رجاء ، زوريكيلا : اريد ان اوفدك الى ايلاريون . . .

— ولاى غرض ؟

— اطلب منه ثلاثة بودات من الخمر ، وانت تعرف انه لا يوجد فى القرية اجود من خمره .

— الافضل ان تطلب من جدتى ، فهى لن ترد طلبا .

— طال عمرك ! اريد خمرا وليس خلا ، فانا لا اعتزم ان اخلل الخيار .

— سانقل رأيك الى جدتى .

— وحينها ساخيط لك هذا الفم الذى يصل الى اذنيك ولن تنبس بكلمة بعدها . الافضل ان تفعل ما اقول لك . . اذهب الى ايلاريون واطلب منه ان يبيعنى او يسلفنى الخمر . انه يحترمك ولن

يرد لك طلبا . . .

— لمن الخمر ؟ لك ؟ اذن اطلبه انت . . .

— زوريكو ، عزيزى ، حبيب قلبى ، لا تنثر ملحا على جرحى ! اعمل معروفا ، ونفذ طلبى . ايلاريون ، من بعد البرقية لا يسمح لى ان اقترب منه على مرمى حجر . . واذا رفض طلبك ، حينذاك . . .

— حينذاك ؟

— حينذاك . . . عليك ان تضع علامة على الجرة التى يحفظ فيها اجود خموره . وعندذاك سألعب به لعبة تجعله مضغة فى افواه القرية .

— اى لعبة ؟

— اللعبة هى ان الخمر سينتقل فى منتصف الليل من جرة ايلاريون الى جرتى . مفهوم ؟

— لقد فقدت عقلك ، يا ايليكو !

— لاتصرخ ، ارعن ! هل نسيت تبغ من تدخن ؟

— خلّصنا ! تبغك ، يعلم الله ، ينخر الصدر .

— كفاك ، والافضل ان نتحدث فى صلب الموضوع . عشر حفنات من التبغ وتصمت صمت الموتى . اتفقنا ؟

— الدفع حالا ؟

— اجل ، بالطبع .

— اتفقنا . إذهب الى البيت وساوافيك بالجواب .

— بدون غش !

— مع السلامة .

قبل ايليكو جبهتى وربت على خدى ووخزنى بنظرة من عينه الوحيدة ، وقال بحمية :

— اسمع زوريكيلا : ان تخون ايليكو تشيغوغيدزه وان تخون

الوطن سيان . لا تنس ذلك . . .

اجبت متبرما :

— وهل يخدع انسان مثلى احدا ؟

اطمأن ايليكو ومضى الى البيت مبتهجا ، وتوجهت انا الى ايلاريون .

سخت الشمس على التفاح المجفف المنثور فى الشرفة فلوحته وجعلته كالرغيف الاسمر . كان ايلاريون مضطجعا على فروة عنز ممدودة تحت شجرة الزيزفون يطالع بامعان صحيفة عمرها اسبوع . قريتنا لا تعرف صحف اليوم والامس وامس الاول . كل الصحف هنا عمرها اسبوع .

— مرحبا ايلاريون .

— اهلا ، زوريكيلا . . . ماذا اراد الابليس الاعور فى هذا الصباح الباكر ؟

— مجرد زيارة عابرة .

— وماذا قال هذا الارعن ؟

— يريد خمرا . قال اذهب الى ايلاريون ، واطلب منه ان يبيعنى او يسلفنى ثلاثة بودات .

— الا يريد سما ؟

— كلا . يقول : اريد خمرا .

— ليس لدى خمر ينفق على هذا المهووس .

— اعطف عليه ، اعطه شيئا .

— وهل عطف علينا عندما دس لنا التبغ المفلفل ؟ ثم هل نسيت البرقية ؟

— الحق معك .

— اذن اترك الموضوع !

— اتعرف ماذا قال ؟

— ايه ؟

— قال اذا رفض ايلاريون ، ضع علامة على الجرة التى فيها احسن خموره وانا سافرغها عند منتصف الليل . . .

— هيك ؟ طيب ، انا الآن بحاجة الى عونك يا زوريكيلا . انت تعرف انني لا انسى الجميل .

مساء كنت جالسا عند ايليكو اتساوم بعناد .

— خذ حفنتين من التبغ ولا تطلب اكثر !

— هذا كلام ؟ يعنى انا وضعت العلامة على الجرة دون مقابل ؟

— لطمتك حمّة ، خذ اربعة .

— عشرة !

— اربعة !

— عشرة !

— تلاقى ربك يا اهبل ! ارحم رئتيك !

— هذا ليس شغلك . هات التبغ !

— خمسة !

— اما ان تعطنى الحفنات العشر كلها ، او اذهب الآن الى ايلاريون واسرد له القصة من اولها ! . . بخاطركم !

— خذ ، خذ ، تنقلع عينك التى لا تشبع ، يا سافل ! — وضع ايليكو امامى غاضبا عشر حفنات من التبغ الذهبى وقال — ولكن الامر محسوم . تأتى معى ليلا وتساعدنى .

عند منتصف الليل كنا وايليكو مختبئين بين الحشائش المبللة بالندى تحت اعواد مهشمة عند سياج يحاذى قبوا يحفظ فيه ايلاريون خمره .

عطست ثلاث مرات تباعا ، فغضب ايليكو وضربنى ضربة موجعة قائلا :

— الله لا يمد بعمرك ، يجيك طاعون ! بطول النخلة وما



قادر يتحكم بانفه .
همست لايليكو :
— تلك هى الجرة . . . ثلاثون بودا ، هل ترى ، هناك عصى فى مكانها .
انحشر ايليكو فى فجوة بالسياج وزحف على بطنه قاصدا الجرة . دست القربة فى عبى وتبعته . اصدر ايليكو اوامره بهمس : «لنبدأ» واعطانى معزقة .
عملنا بسرعة وبدون ضوضاء . وبعد ربع ساعة استبان لنا غطاء الجرة .
— افتح — قال ايليكو وجهز القربة . كانت رقبة الجرة واسعة الى حد ، يتيح لنا نحن الاثنين ان ننسل الى داخلها .
رفعت الغطاء بعناء شديد . انحنى ايليكو بسرعة وحشر رأسه فى الجرة ثم زمجر فجأة :
— ماذا ارى ؟ الجرة فارغة !
— غير معقول ، ايليكو ، انها مليئة ، مد رأسك !
انحشر ايليكو فى الجرة حتى كتفيه تقريبا . وهنا تعالى صراخ ايلاريون وهو ينحدر من شجرة :
— امسك حرامى ! يا نصابين يا افاقين ! قف ، لا تتحرك ، سأطلق النار .
— دبر حالك — صرخت وامسكت ساقى ايليكو ولكنه ارتعب وانفلت من يدى . . . وسقط فى الجرة . امسك ايلاريون بتلابيبى :
— من انت ؟ تكلم والا اجهزت عليك فى الحال !
اجبت متضرعا بصوت متهدج :
— هذا انا ، يا ايلاريون ! لا تقتلنى !
— واين الثانى ؟
— لا اعرف .

— تكلم والا قتلتك !
— لا اعرف يا عم ايلاريون .
— من هو ؟
— لا اعرف .
— كيف لا تعرف وقد كنتما معا ؟
— لا اعرف .
— انزل غطاء الجرة حالا ، قبل ان اطلع روحك ، وسيكون لنا فيما بعد حديث آخر — قال ايلاريون وكال لى صفعة جعلتنى اصرخ كالمسعور ، بدلا من ان افتعل البكاء كما كانت تنص الخطة .

انزلت الغطاء بسرعة ووضعت عليه حجرا ثقيلا ، ثم اخذت المعزقة معتزما ان انثر التراب على الجرة ، فتناهى من جوفها صوت :

— يا قادر على كل شيء قدير ، يا رسل ويا ملائكة ، لتنشق الارض وتبتلع كل الزنادقة والانذال والسافلين والمخادعين ! يا رب السموات والارض ، انزل صواعقك على رأسى ايلاريون شيفاردنادزه وزوريكيلا فاشالوميدزه ! استغفلنى الكافران !

صرخ ايلاريون وهو يدس فوهة بندقيته فى الجرة :

— هيه ، من هناك ؟ تكلم والا هشمت يافوخك !
— هذا انا ، ايليكو . اسحب البندقية يا ابليس ، يا ابا المناخير ، لا ترتكب خطيئة !
— سافل انت ، ولست ايليكو . عمّ تبحث فى جرة فارغة ؟

كدت اطق من الضحك .

— ايلاريون ، تدفننى حيا ؟ اخش الله !
— لم ارتكب خطيئة ! سأردمك يا زنديق ، ولن يعاقبنى الرب بل سيكرمنى الثواب .
— فك حالى ، يا ايلاريون .
— رح ، زوريكيلا ، انده الجيران ، لير الجميع هذا الضبع

الاعور الجالس فى جرتى .
— ايلاريون شيفاردنادزه ! لا تجعل السنة القرية تأكلنى !
حسبك ان انفاسى تقطعت فى هذه الجرة العفنة . كفاك هزرا .
— انا لا اهزر ابدا ، ساغلق الجرة الآن وبعد شهر ساقطرك
واجعل منك عرقا .
قلت :
— ومن بحال هذا العرق الجائف ، تسمم الناس بس .
— زوريكيلا ! بعتنى كالتبن يا نذل ؟ !
— احسن ان تتذكر التبغ المفلفل والبرقية ! ابق جالسا فى
الجرة واشتم رائحة العفن .
— كفاكما تهكما ، يا زنادقة ! أتريدان ان اقضى بقية
ايامى فى الجرة ؟
قلت :
— لندعه يخرج ، مسكين !
— طيب ، ليخرج ، ولكن ليصرخ بأعلى صوت : انا اهبل .
سألت ايليكو : «موافق ؟» . فصرخ كمن سدت بوجهه ابواب
السماء :
— اهبل انا ، اهبل .
خرج من الجرة واستنشق هواء الليل الرطب ملء رئتيه ، وكأنه
بحار من طاقم غواصة عادت توها من رحلة طويلة . ثم رفع القربة
وطأطأ رأسه قائلا :
— غلبتمونى ، استسلم .
استدار واتجه نحو البوابة وهو يدمدم بكلمات مبهمة . فصرخ
ايلاريون فى اثره :
— الى اين يا ناكر الجميل ؟ الا تريد ان تباركنا ؟
— يبارككما الله ، لكما وافر الشكر ، لم تردا لى طلبا !

— ليس هكذا يا اعور ! . . انتظر . زوريكيلا ، ارفع التراب عن تلك الجرة — قال ايلاريون واشار الى جرة ملأى .

قبل ان انفذ امر ايلاريون اخرجت من جيبى تبغ ايليكو ولففت سيجارة ، فحذرنى ايليكو بوجل :

— لا تدخن ، زوريكيلا ، التبغ مخلوط بفلفل .

. . . ظلت الاغانى تصدح والانخاب العذبة وطقطقة القبلات تتعالى فى قبو ايلاريون حتى الفجر .

عند طلوع الصباح عانيت وايلاريون الامرين ونحن نجرجر ايليكو وقربة ضخمة مترعة بالخمر .

الحارس

ذات يوم كنت عائدا من المدرسة عبر حقول الشاى لاختصر المسافة . وكانت ايزابيلا* الريانة الممتلئة ترمقنى بنظرات شبقة من خلال اغصان الاشجار الخضراء . لم اصمد ، فعلقت حقيبتى على غصن ولم تمض لحظات حتى كنت قد ارتقيت قمة الشجرة التى طوقتها ايزابيلا . كم كان العنب لذيذ المذاق ! لا ادرى لماذا يقول اهل المدن ان لايزابيلا رائحة البق . لست حكما ، لاننى لم اذق طعم البق ، ولكن اذا كان ما يقولون حقا فمرحى للبق ! اخذت ألتهم العنب حفنات فى البداية ، ولما شبعت شرعت آكل ببطء متلذذا وباصقا القشور .

تعالت فجأة صرخة تنذر بالوعيد :

— هيه ، من هناك على الشجرة ؟ من ذا الذى يسرق مال الكولخوز ؟ — فوجئت ، فكدت اسقط من الشجرة ، ولكننى تشبثت بغصن فى اللحظة المناسبة ، وحبست انفاسى .

---

* صنف من العنب . **المترجم** .

— هل أكلم حائطا ؟ اطرش انت ؟

تطلعت الى الاسفل ، فوجدت ايليكو يقف تحت الشجرة معتمرا قبعة قش عريضة الحواشي ، وقد تدلى حبل على صدره ، ووضع فأسا فى نطاقه . كانت الى جانبه عنزة عجفاء تلتقط قشور العنب وهى تحرك شفتيها بصورة مضحكة .

— ما لك ؟ الا تسمعنى ؟ انطق ، من انت ؟ من اعطاك حق التصرف بكروم الكولخوز ؟ اتراك شيطانا ؟ اجب فورا !

— شيطان انا ، شيطان !

— لتكن شيطانا سبع مرات ، ومع ذلك يجب ان تعرف ان حقول الكولخوز ليست من رياض الجنة لكى يأكل حتى التخمة من اعنابها كل ابن كلب وافاق ! انزل والا جعلتك تتساقط من هناك كالثمر الناضج .

— اصعد اليّ ، نتحدث هنا !

— قلت لك انزل !

— لن انزل .

— لن تنزل ؟

— ما عندى نيّة !

— طيب ، ابق مكانك ، وسنرى مدى صبرك ! لست فى عجلة من أمرى ! — قال ايليكو وجلس تحت الشجرة . واصلت التهام العنب مطمئنا .

مضت ساعة . نفد صبر ايليكو فندهنى :

— ماذا تفعل هناك ايها الشيطان الملعون ؟

— اضفر عشا !

— خليك آدمى : انزل واتبعنى الى الادارة بمحض ارادتك .

— انتظر ، حتى آكل .

— بشر انت ام عصّارة عنب ؟ انزل فورا !



— لن انزل .
— يعنى ترفض الامتثال للسلطة ؟
— بلى .
— حسنا . خذ اذن الحبل والفأس واحرس انت !
— امّا لصقة ! امّا بشر ! امش فى دربك ودعنى فى حالى !
— احذرك للمرة الاخيرة : انزل من الشجرة والا ندهت الناس —
فى تلك اللحظة لفتت حقيبتى انتباه ايليكو .
— ها ! لن تفر الآن . سأعرف من انت .
اتخذ ايليكو موقعا مريحا واخذ الحقيبة من اطرافها وهزها فتساقطت محتوياتها على الارض . اخذ يقرأ عناوين الكتب :
— «ديكاميرون» . . «كيف سقينا الفولاذ» . . . «وحيد بين اكلة لحوم البشر» . . «كريستيان وايزولدا» . . . «فارس فى جلد نمر» . . . ما راح تخبرنى من انت يا ابن الابالسة ؟ واين تتعلم ، فى اى مدرسة : لا دفتر عندك ولا قلم ! — قال ايليكو الذى استبد به الغضب وفقد كل امل .
— هذا انا ، زوريكيلا ، يا عم ايليكو !
— اوووه ، اخذ الله روحك يا اسفل السافلين ! طلعت روحى يا نذل ! انزل حالا واقطع لى عنقودين .
انحدرت توا من الشجرة وعانقت ايليكو عناقا حارا :
— كيف الاحوال ، يا عم ايليكو ؟
— وعندك وجه تسأل يا عديم الحياء ؟ لوّعتنى ساعة كاملة . وها قد راح الآن كل شيء هباء .
لم افهم قصده فسألت :
— ماذا تعنى : هباء ؟
— مثل ما سمعت . منذ ستة اشهر وانا اعمل حارسا فى الحقول . انت تعرف ذلك بلا شك ؟

— اعرف طبعا . ثم ماذا ؟
— احكيلك : اعطوني حصانا . . ليس حصانا بل شيطان ! ذاك مرة تسللت بقرة سينيتو الاعرج الى الحقل . . . قفزت من على ظهر الحصان وامسكت ذيل البقرة . . تلفت فيما حولي : اين الحصان؟ هرولت وراءه وامسكت بالملعون بشق الانفس . استدرت : اين البقرة ؟ اطلقت عنان الحصان وركضت وراء البقرة ، امسكت بها ولكن لم يعد للحصان اثر . تركت البقرة واخذت اعدو وراء الحصان ، فضاعت البقرة . لن اطيل عليك : مكثت طوال اليوم اركض لاهثا من البقرة الى الحصان حتى هرب الاثنان . وقد وبخني رئيس الكولخوز يوم امس في الاجتماع العام وقال : اما ان تؤدى وظيفتك كما يرام او انحّيك عن منصبك . .
— وما دخلى فى الموضوع ؟
— انت لب الموضوع ! شاهدت لصا على الشجرة وفكرت : فرجت ! ساقبض عليه واسوقه الى الادارة ، وبعدها لن يجرؤ الرئيس على اتهامى بالتقصير . ولا اعرف الآن اين اولى وجهى .
— سقنى انا الى الادارة .
— انت جننت ؟ تريد ان تقتلع جدتك اخر عين بقيت لى ؟
— وماذا ستفعل اذن ؟
سآخذ العنزة الى الرئيس ، وليفعل بها ما يشاء .
— ولمن العنزة ؟
— وهذا سؤال ؟ عنزتى ، أهى اول مرة تراها ؟
— ولكن كانت لها لحية .
— كانت . وها قد جززتها .
— لماذا ؟
— لكى لا يتعرف عليها احد . والا نفضح امام العالم : حارس يقبض على عنزته .

— وبعدين ؟

— ولا قبلين . لا دفع منها ولا نفع . حتى لو سقيتها حليبا فلن تستدر من ضرعها قطرة . ثم لا فائدة من ذبحها : عظم وجلد . ما منها الا الخسارة .

— واذا عرفوا بالامر ؟

— مستبعد . انا نفسى لا اصدق انها عنزتى . . . بخاطرك يا ولدى . شكرا على العنب ، بلل حنجرتى بعد ان يبست .

— مع السلامة يا ايليكو .

— ايّاك ان تثرثر بشىء لايلاريون ، والا فضحتنى .

— لا تخف ، ايليكو .

. . . بعد مضى شهر كافأت ادارة الكولخوز ايليكو لقاء عمله الجيد ، فأعطته عنزة سمنت بعد هزال . . .

الاجتماع

ثمة شجرة شوح وحيدة تسمق فوق رابية ، وقد علق فوقها ناقوس انتزع من برج كنيسة مهدمة . عندما يقرع الناقوس صباحا فهو يؤذن ببدء الدروس فى المدرسة ، اما اذا قرع مساء فهو اما نذير حريق او دعوة لاجتماع عام للكولخوزيين .

انا ، بوصفى الرجل الوحيد فى العائلة ، ادعى دوما لحضور الاجتماع ولكن بصوت استشارى فقط .

دوى صوت الناقوس مساء اليوم ، ولم يكن ثمة نار او دخان ، وبالتالى فهى دعوة للاجتماع .

سمعت صوت ايلاريون :

— زوريكو ، ذاهب ؟

— اجل ، ايلاريون . — قفزت عبر السياج وسرت الى جوار ايلاريون . سألته :

— الا تعرف ماذا سنبحث في الاجتماع ؟

— وهل تحتاج معرفة ؟ على الارجح مسألة مقر الادارة مرة اخرى .

كان الاجتماع قد بدأ ، فجلسنا في الصف الاخير واخذنا نصغي . كان ألفيز محاسب الكولخوز ، رئيس الجلسة ، يتحدث :

— القضية كالتالي : عندما انتخبنا افكسينتي رئيسا ، قرر ان نفكك مبنى المقر وننقله الى مكان قريب من بيته . ثم ، كما تذكرون ، انتخب كيريل رئيسا ، فانتقل المقر الى موقع جديد . وفي العام الماضي اقيم المقر مقابل دار دميتري . وها ان رئيسنا الجديد شالفا يطلب بناء المقر قرب بيته . هل ثمة من يطلب الكلمة ؟ ولكن احذركم مسبقا ، المدة القصوى خمس دقائق . فانا اعرفكم حق المعرفة ، نعطيكم الكلمة ثم يستحيل ايقاف سيل الكلام . . .

— لدى استفسار !

— هيا ، تريفون ، ماذا لديك ؟

— اريد ان اعرف رغبة شالفا المحترم : هل نشيد مبنى جديدا مقابل داركم ، ام ننقل المبنى القديم ونسقفه من جديد ؟

هب الرئيس منتفضا :

— تريفون سيخاروليدزه ، خليك في الموضوع وتحدث بجد ، والا اريتك موقعك ! يجب تفكيك مبنى المقر ووضعه مقابل دارى ، مفهوم ؟ لا استطيع ان اهدر وقتي هكذا : اخرج مع الفجر ولا اصل الى المقر ، الا عند حلول المساء .

— استحث خطاك يا عزيزنا شالفا !

— من قال ذلك ؟ انهض لنشوف !

— ايها الرفاق ، خلونا في الموضوع ! مَنْ لديه استفسار آخر ؟

— انا ، — قال ماكاري تسخويدزه وتنحنح بشدة حتى انه

كاد يقطع اوتار حنجرته .

— سمّعنا صوتك ، مكارى ، هيا !

— ماذا حل بالعجلة الاصيلة التى جلبتها من سامتريديا فى العام الماضى ؟

— نفقت المسكينة غما بعد الولادة السعيدة لزوجة رئيسنا المحترمة .

— من قال ذلك ؟ انهض لنشوف ، يا مثير الشغب !

— عندى اقتراح ، — قال ايلاريون — اسمحوا لى ؟

— دعوا ايلاريون يتكلم !

— ايها الرفاق ، لم يعد الآن ما يستدعى المذاكرة والتدقيق : ماذا حل بالعجلة ، ولماذا استخدم طابوق الحكومة لبناء بيت الرئيس ، وكيف انتقل خمر الكولخوز الى جرار الرئيس . . علام ذلك ؟ . . اذا سمع الناس صرنا اضحوكة بينهم . . . لا يجوز ان ننشر الغسيل الوسخ . .

— ايلاريون شيفاردنادزه ! اصطبر على ! ستحاسب عن هذا الافتراء والقذف . خير لك الآن ان تجلس .

تدخل ايليكو :

— دعوا الرجل يكمل ! انه يقول الحقيقة .

— ما اريد قوله : قد يكون من الافضل ان نفعل العكس : نفكك دار الرئيس وننقلها الى جوار المقر .

— أهذا كلام يا ايلاريون ؟ اكمل لتوه بناء البيت الجديد ونفككه ؟

— اذن نفعل ما يلى : ينتقل الرئيس للسكن فى المقر ونجعل من داره مقرا .

انفجر الرئيس :

— ما لك جننت ؟ تريد ان تعطينى كوخا عفنا عوضا عن دارى الجديدة ؟

— ثمة اقتراح آخر : نفكك دار الرئيس ونضعها فى فناء المقر ،

ثم نفكك المقر ونضعه فى موقع الدار .

قال المعلم :

— اذا تغير موقع القيم فى عملية حسابية فان الحاصل لا يتغير .

— اذن لم يعد فى جعبتى اى اقتراح — قال ايلاريون وجلس .

نهضت مرغريتا تشانتوريا :

— عندى اقتراح . غدا سيفد الينا فنانون من تبليسى* وبما ان المواد الانشائية المخصصة لبناء النادى استخدمت فى بناء دار الرئيس ، فاننا سنقيم الامسية الفنية فى داره .

— اين كان عقلى حين عينتك رئيسة فرقة ؟

نهض واحد من المجتمعين :

— لدى استفسار . متى يعتزم الرئيس البدء بترميم المدرسة ؟ لقد تردت البناية الى طبقة** مزرية .

فرد ايلاريون

— وما شأنه بذلك ؟ انه يبنى المجتمع اللاطبقى .

شحب وجه الرئيس . وتكهرب الجو . رفع ايليكو يده :

— لدى اقتراح جيد .

— انطق !

— يا جماعة ، ها اننا نحيد ثانية عن صلب الموضوع : موقع اقامة المقر .

— ماذا تقترح ؟

— قد يكون من الاصلح ان نترك مسألة تفكيك المقر بالمرة . أليس من الافضل ان نجمع من كل رأس دية ونشترى للرئيس سيارة ؟

— مرفوض اقتراحك من اصله ! تريدنا نروح فى داهية ؟ واذا

---

* عاصمة جورجيا . **المترجم** .

** الطبقة : لغة ، تعنى المرتبة او الحال . **المترجم** .

حصل اصطدام ، لا سامح الله ؟ ماذا سنفعل ، نحن الايتام ، بدون رئيس ؟ الافضل ان نبعث الى بيته كل صباح اثنين من الفتيان الاشداء ليحملوه على ايديهم الى المقر !

— الا يكفى انه جالس فوق رؤوسنا ، لنحمله على ايدينا ايضا ؟ !

— طيب ، لدى اقتراح آخر . . . اين سائقنا ؟

— ها انذا ، يا ايليكو .

— كيف الاحوال ، كيف صحة سيارتك ؟

— لا بأس ، شكرا . . . وكيف صحتك انت ؟

— شكرا ، الحمد لله . . هل لديك اربع عجلات فائضة عن الحاجة ؟

— وما حاجتك انت اليها ؟

— نركب المقر على عجلات وندفعه كل يوم جيئة وذهابا .

ضجت القاعة بالضحك ، فنهض الرئيس :

— ايليكو تشيغوغيدزه ! تذكر هذه الامسية . اذا لم تندم على فعلتك ، فابصق فى وجهى .

— بكل ممنونية ، يا شالفا العزيز ، بكل ممنونية . . . رجوتك ان تعيننى موزع بريد فعينتنى حارسا . . . انا الاعور ، انا المشوه ! ماذا عساك ان تفعل اكثر ؟

— يبدو انك كنت تريد ان تصبح رئيسا ؟

— وما المانع ؟ أتعتقد اننى كنت ساعجز عن بناء بيت من طابوق الكولخوز ؟ او ان شهيتى اسوأ من شهيتك ؟

اسقط فى يد الرئيس .

— على مَ استقر رأينا ؟ — تساءل رئيس الاجتماع .

— اسمحوا لى بكلمة . لدى اقتراح ! — صرخت من مكانى وارتعبت لفرط جرأتى .

نهرتنى اصوات «صه ، يا جربوع» . فهتف ايليكو :

— دعوه يتكلم . لكل مشارك فى الاجتماع حق الكلام .
فعادت الاصوات تتعالى :
— انطق ، انطق ، يا ارعن !
— لدى اقتراح . . . بما ان القرية كلها هنا والاجتماع يشارف على الانتهاء . . فلا يجوز ان ينفض الاجتماع دون اتخاذ قرار واضح .
— لا تدوخ رؤوسنا ! قل اقتراحك وخلصنا !
— قليلا من الماء ان امكن . . — نطقت بصعوبة وقد تيبس حلقى .
— اعطوه ماء ، ان شاء الله زقوم !
افرغت ، متمهلا ، نصف قارورة من الماء ، ومسحت شفتى وواصلت :
— بما ان الامور جرت على هذه الشاكلة وليس بوسعنا الاتفاق على قرار . . .
— اختصر يا سافل ! صبرنا نفد !
— اقترح اقالة الرئيس وانتخاب رئيس جديد يكون بيته قريبا من المقر !
ساد صمت كصمت المقابر . ومكثت انتظر وركبتاى تصطفقان ، متوقعا ان تقع الواقعة .
وقد وقعت الواقعة فعلا . كان ذلك اول اقتراح ادلو به فى اجتماع عام ويحظى بتأييد اجماعى .
اقترب ايلاريون منى وطبع قبلة على جبينى وقال :
— الحمد لله الذى منّ علينا اخيرا بعاقل واحد ! لولاه لبقينا جالسين حتى الصباح ! سوف ننتخب غدا رئيسا جديدا ونغلق الموضوع .

العباءة والجزمة والجوارب

كان شتاء شديدا قارسا . الثلج ينهمر بلا انقطاع والريح تنخر العظام . وكان الزمهرير يدخل حجرتنا عبر الشقوق دون عائق . اخذت جدتى تسد الشقوق بالخرق اول الامر ، ثم شرعت تستخدم دفاترى . ولا تسعفنى الكلمات لاصف مدى السعادة التى كانت تغمرنى وانا اساعدها فى اتلاف هذه الوثائق المخزية .

انجزنا اخيرا سد الشقوق وغدت الحجرة أكثر دفئا . بيد ان هزيم الرياح الباردة ظل يسمع فى الفناء . كنا وجدتى جالسين عند الوجاق ، وهى تقص لى حكاية وترمقنى ، بين الحين والآخر ، بنظرة لتستجلى ما اذا كنت اسمعها . وكنت اعلس ، ببطء رغيفا بائتا ، سارحا فى افكارى . كان الامير الشاب قد اجهز على الحرس وبلغ بوابة القصر البلورى المنشودة ، وكان قد تهيأ لاحتضان حبيبته الحبيسة ، حين سمعنا وقع اقدام عند الشرفة ، فقالت جدتى :

— انظر من هناك .

تطلعت من النافذة فرأيت ايليكو وايلاريون واقفين على الشرفة ينفضان الثلج عنهما . فتحت الباب ورحبت بالضيوف .

— طاب مساؤكم ! — قال ايلاريون والقى بزلاجتين جديدتين فى زاوية بالحجرة . سألته :

— من اين الزلاجات يا ايلاريون ؟

— سينزل خلال الليل ثلج كثير يصل الركبة . ومن سيذهب عوضا عنك الى المدرسة صباحا ؟ جرب الزلاجات ، ملعون ، انها لك .

عانقت ايلاريون وطبعت قبلة على خده البارد المخشوشن ثم تطلعت الى جدتى متضرعا . ابتسمت ، فاهمة ما اريد ، ونهضت متأوهة واتجهت الى الخزانة التى لا ادرى لماذا تسميها «بيت المال» . وبعد دقيقة اقيم امام الوجاق خوان قمىء وعليه قنينة عرق ورغيفان

وتفاح وكمثرى . قال ايلاريون :

— استحلفك بالله ، يا اولغا ، الا تتعبى نفسك . فقد مررنا لمجرد رغبة فى الثرثرة .

ردت جدتى وهى تمد يدها الى القنينة :

— كما تشاؤون ، بوسعى ان اعيدها .

انتهر ايليكو صاحبه :

— الذى لا يريد يرينا عرض اكتافه ، امسك لسانك ولا تتحدث نيابة عن غيرك . — وانتزع القنينة بسرعة .

— كيف ؟ انت تشرب العرق ؟ — سأل ايلاريون ونمّت تقاطيع وجهه عن دهشة انسان بوغت برؤية ديناصور منقرض .

— فى مثل هذا البرد يشرب المرء حتى الكحل اذا كان فيه كحول ، — اجاب ايليكو واترع القدح .

— برد ! — قال ايلاريون وهو يملأ القدح ، ثم افرغه وقضم تفاحة . — تفاحك هذا ، يا اولغا ، يغدو فى الخريف حامضا الى درجة ، ان الخنزير اذا تذوقه انفلت من عقاله ، ولا ادرى كيف اصبح الآن بمثل هذه الحلاوة ! ؟

ابتسمت جدتى :

— اشرب ، عزيز عينى ، اشرب . اذا سقوك عرقا تحولت انت الى سكّر .

اترعت الاقداح مرة ثانية ، واحتسيت . ثم ثالثة . قال ايلاريون :

— مر عليّ اليوم ساعى البريد . . . جاء بورقة نعى . . عن استشهاد ابن غيراسيم . . . قال انه يعجز عن ابلاغه . . . وطلب اليّ ان انقل الخبر .

ولولت جدتى :

— وليدى ، وليدى ! يا مصيبة ابوك ! . . آه ويلى عليك ، غيراسيم . . .

واصل ايلاريون حديثه :

— قتل الولد المسكين فى مدينة كيرتش . . . سابع شهيد من قريتنا .

سألت :

— هل اخبرت غيراسيم ؟

— هو هذا كلام ؟ الرجل ينتظر عودة ابنه من يوم لآخر ، فكيف يطاوعنى لسانى . .

ناحت جدتى :

— يارب ، خذ روح هذا السفاح هتلر . . . بمشيئتك يا رب ، لا تجعل السعادة تدخل الى قلبه وقلوب اهله واقاربه .

سألت ايلاريون ثانية :

— وماذا تعتزم ان تفعل ؟

— سأفعل ما يلى — اجاب ايلاريون واخرج من جيبه ورقة مطوية وتأملها طويلا ثم انحنى بسرعة والقى بها فى النار . تصاعد اللهيب لحظة فأضاء وجه ايلاريون . انحدرت دمعتان شحيحتان على خديه غير الحليقين .

— اذا كان الفتى حيا فانه ، باذن الله ، سيعلمنا عاجلا ام آجلا . وبخلافه ليبق الوالد التعيس ينتظر . . . الانسان يحيا بالامل . حاذر من ان يفلت لسانك يازوريكو ، سامع ؟

— سامع . . .

تناهى من الطارمة صوت ينده :

— اولغا !

— من هناك ؟ ادخل .

دخل الحجرة مسؤول التثقيف الريفى غيورغى فاشاكيدزه .

— عفوا ، الوقت متأخر ، ولكن القضية التى جئت من اجلها لا تحتمل التأجيل .

— اجلس عند النار ، — قالت جدتي وتساءل ايلاريون :
— هل جئتنا بجديد ؟ كيف هي الامور في الجبهة ؟
اجاب فاشاكيدزه بنفس واحد :
— تسير الامور في جبهات الحرب الوطنية العظمى سيرا مرضيا . تم ايقاف زحف العدو . وقد انهارت خطة هتلر في الحرب الخاطفة .
— على مهلك ، على مهلك . . قرأنا عن ذلك قبل شهر في الصحف . . احك لنا شيئا جديدا .
— جديد ؟ لدى حديث جاد معكم . اسمعوا !
امره ايلاريون :
— ابدأ .
نهض غيورغي وتنحنح ثم بدأ وكأنه يلقى خطابا في اجتماع جماهيري حاشد :
— ايها الرفاق ! الوطن الاشتراكي في خطر ! ان العدو الغادر يمد ايديه المخضبة بالدماء ليخنق حريتنا واستقلالنا ! وان الجيش الاحمر الباسل ينزل بالغزاة الفاشيست ضربات ساحقة !
نفد صبر ايليكو فقاطعه :
— اما عجيب هذا الرجل ، جريدة انت ؟ بلا لف ودوران ، ماذا هناك ؟
ارتبك فاشاكيدزه ، فراح ايلاريون يحثه مشجعا :
— تكلم ، تكلم ، ماذا تريد ؟
— يعني . . . نجمع هدايا للجنود . . قد تعينوننا بشئ . . . — قال فاشاكيدزه وزفر مرتاحا .
ابتسمت جدتي :
— ما تقولها من الصبح ، يا ابني ، ما لك بدأت من آدم وحواء . . .
تساءل ايليكو :

— وما نوع الهدايا المطلوبة ؟
— اى شيء : فواكه ، حلوى ، ملابس دافئة ، قفازات ، جوارب شتوية . . اليوم خميس ، ويوم الاثنين سوف نرسل الى الجبهة عربة قطار محملة بهدايا قريتنا . . . اذا خطر ببالكم ان تبعثوا شيئا فاجمعوا الهدايا عند اولغا ، وغدا سنبعث مَنْ يأخذها .
ودعنا فاشاكيدزه وخرج .
مكثنا فترة طويلة جالسين بصمت نفكر ، ما عسانا ان نهدى الجنود .
كان ايليكو اول من خرج من صمته :
— يعنى عندى كنوز سليمان : عباءة واحدة ، وها هى معلقة خلف الباب . . . انهض ، زوريكيلا ، واجلبها .
تطلعت اليه مستغربا فاغرا فمى فقال :
— اغلق هذه البالوعة ! هل ستقوم القيامة اذا لم يلبس هرم مثلى عباءة ؟ ثم ان الربيع على الابواب . اجلب العباءة .
خرجت الى الطارمة وعدت حاملا عباءة ايليكو السوداء وهى ما زالت جديدة بعد . ذات العباءة التى كان يتدثر بها ويحرص عليها حرصه على حدقة العين ، ولم يكن يعيرها حتى لايلاريون .
— جلبتها ؟ اركنها فى الزاوية . . اعطوها للشباب حين يمرون ، — قال ايليكو متحاشيا النظر الى العباءة .
— عار على الرب ان يجعلك اعور ! كنت اعرف ان قلبك من ذهب ولكن ، والشهادة لله ، لم يخطر ببالى ان هذا الصدر النحيف يضم كتلة ذهب . — قال ايلاريون وحك رأسه ، ثم اخذ يتململ فى مقعده ، وهب بغتة خارجا من الحجرة .
كشر ايليكو فى ابتسامة ساخرة :
— اعرف الى اين ذهب ابو المناخير !
— الى اين ؟ — سألت جدتى .

— الى البيت ! الا تعرفين طباعه ؟ سيقلب الدار رأسا على عقب نكاية بى . ولكن بيت هذا الحافى خال حتى من الدود !

ما ان مرت خمس دقائق حتى عاد ايلاريون واتجه بصمت الى ركن الحجرة ليضع جنب عباءة ايليكو جزمته الجديدة التى لا يملك غيرها .

هب ايليكو : — طار عقلك يا رجل ؟

— انهض يا هرم . الوقت متأخر . هل تعتزم المبيت هنا ؟ — قال ايلاريون وقصد الباب . . .

. . . ايقظنى حفيف لا يكاد يسمع . كانت جدتى تقتعد حافة السرير ، ترتدى ملابسها محاولة الا تحدث ضوضاء . ثم نهضت بهدوء وسارت على اطراف اصابعها قاصدة «بيت المال» وعادت حاملة الممشقة* ، ووضعتها عند الوجاق ثم قصدت السرير ففتقت المرتبة واخذت تنتزع الصوف المحشو فيها . جلست قبالة الممشقة على جلد ماعز ملقى قرب الوجاق واخذت تمشط الصوف وهى تنود بجسدها كله بايقاع واحد مع حركة يديها وهى تغمغم برتابة .

بقيت اتطلع طويلا الى جدتى وقد اغرورقت عيناى بالدموع . كنت افكر بذلك الجندى الذى لا اعرفه والذى كانت جدتى تحوك له الجوارب الدافئة بيديها المرتعشتين فى هذا الليل الشتائـــى القارس .

امسية ادبية

كنا نزجى اماسى الشتاء الباردة عند ايليكو . الحطب يفرقع بجذل فى الوجاق وقطعة لحم الخنزير فى المقلاة تفتح الشهية ،

---

* الممشقة اداة لتمشيط الصوف . **المترجم** .



والى جانبها جرة صغيرة يحمى فيها النبيذ . نحن نلعب النرد أو نقرأ بصوت عال ، ولكننا غالبا ما نتجاذب اطراف الحديث حول السياسة . السياسة شاغلنا الاكبر ، ولم يكن هذا همنا وحدنا : اذ كان ذلك شتاء عام ١٩٤٢ والالمان على اعتاب موسكو .

. . . ايلاريون يقرأ بلاغات مكتب المعلومات السوفييتى* ، ثم يطوى الجريدة متمهلا ويقول بيقين تام :

— انتهى هتلر !

— ماذا تقول الصحف ، ايلاريون ؟

— توقفوا عند موسكو ولم يعودوا يخطون خطوة اخرى .

— وماذا عن الجبهة الثانية ؟**

— احم ، الحلفاء ليسوا فى عجلة من امرهم . . . ثم ان بريطانيا تحاور وتداور . تلح على امريكا ، قائلة اديرى ظهرك للاتحاد السوفييتى وساعدينى .

— وامريكا ؟

— تقول حليّ ، هذا ليس من شأنك .

— ثم ان المانيا تروم اقناع تركيا واليابان ، قائلة حالما ادخل ستالينغراد اضربا من جانبكما .

— قد تعتقد ان دخول ستالينغراد مثل الانتساب لجمعية «الصليب الاحمر» : حالما تكتب طلبا لفيرا بورتشولادزه حتى تقبل مصحوبا بالتصفيق والهتاف ؟

— ايه . . . فى الآونة الاخيرة ، لا اخفى عليكم ، لا تعجبنى سياسة تركيا !

---

* هيئة اعلامية كانت تعد البلاغات عن سير القتال فى جبهات الحرب . **المترجم** .

** يقصد الجبهة الثانية فى اوربا التى ظل حلفاء الاتحاد السوفييتى يماطلون فى فتحها حتى عام ١٩٤٤ . **المترجم** .

— اوهو ، انها ثعلب لا شبيه له . . فما ان تشعر تركيا بان احوال المانيا تعبانة حتى تنقض عليها .

— ما هذا الكلام ؟ غير معقول !

— هذا انا وهذه المانيا ! ساحلق شاربى اذا لم تجر الامور كما قلت .

— واليابان ؟

— قصتها قصة . . . المانيا تستعجلها ، تقول ، ابدئى ماذا تنتظرين ؟ فترد : انت ، تقول ، حرنت عند موسكو وما زلت واقفة بلا حراك . لنفترض انى بدأت ، ثم الى اين اولى وجهى ؟

— وماذا يقول هتلر ؟

— حم ، هتلر . . اعلن هتلر مرتين بالراديو عن سقوط ستالينغراد . ولكن من يخدع اليابان ؟ انها ابليس ولا اشطن . . ايه ، امورهم تعبانة !

— من فمك لباب السما ! . . املأ الاقداح ، زوريكيلا ! نرفع اقداحنا ونشرب نخب النصر ، نخب من يقاتل فى الجبهة ، نخب السلام .

قلت بغتة :

— نظمت قصيدة يوم امس .

اسقطت المفاجأة قطعة اللحم من يد ايلاريون ، وشرق ايليكو بالخمر فاحتقن وجهه وصار مثل بطين الديك .

التقط ايليكو انفاسه وسأل :

— ماذا قلت ؟

— نظمت قصيدة . . عن الحرب .

تبادل ايليكو وايلاريون النظر :

— هات اقرأ ، رجاء !

اخرجت من جيبي قصاصة ورق ، ونهضت ووقفت منتصب القامة ، ثم مددت يدى اليسرى الى الامام وشرعت اقرأ بملء الصوت :

عدونا الغادر ، عدونا الملعون
شمر السيف علينا فى يوم الطعون .
لكن عينه لن ترى النصر
سنفدى الروح فى ساحة الكرّ
لاتوقف ابطالنا الموانع
ذطلق الرصاص من الدبابات والمدافع .
وان تعالى نداء الوطن
ساهجم بلا خوف فى ساعة المِحَن .

قرأت الشعر ومكثت ارتقب الحكم بقلب واجف .
ساد الصمت نصف ساعة قال بعدها ايلاريون :
— بلى . . . شعرك ، يعنى ، مكتوب بصوت عال .
فرد ايليكو وهو يتطلع اليّ بأسى :
— هذا ليس اسوأ ما فى الامر ، اذ يمكن ان يخفض صوته . ولكن ماذا سيحل به الآن ؟
سأل ايلاريون :
— خبرنا ، هل تقرض الشعر من زمان ؟
— منذ شهر .
— واين كنت حتى الآن ، يا خايب ؟ اما كان بوسعك اخبارنا فى الوقت المناسب ؟ ماذا سنفعل الآن ؟ ارثى لحال جدتك المسكينة . كنت اخمن سابقا انك ستفلت من العقال فى يوم اسود قال ايليكو وهز يده متبرما .
— طيب وكيف هو شعورك الآن ؟ هل قرض الشعر سهل عليك ؟

— ماشى الحال . . . بوسعى ان انظم فى اليوم الواحد ثمانى او تسع قصائد من هذه ! الورق غير متوفر ، والا لكتبت اكثر .

— قليل ! — قال ايليكو .

وتساءل ايلاريون :

— هل تعرف الجدة انك تقرض الشعر ؟

— كلا .

— اذن اضبط لسانك . يكفى العجوز ما لديها من المصائب . هل نظمت قصائد اخرى ؟

— نعم . عن الحب .

— اقرأ لنشوف !

القيت نظرة وجلة نحو ايليكو فقال :

— انطق ، انطق ، ما عاد يفْرق معنا الآن !

اخرجت من جيبى قصاصة ثانية وشرعت اقرأ بصوت خفيض :

الليل . البدر يسبح فى السماء .
الثلج والريح فى الفضاء .
التجوال فى الليل يبعث فى القلب البهجة .
واذرف دموع السعادة من المُــهجة
عيونى لا تعرف النوم .
طار عقلى يا قوم !

ساد الصمت خمس دقائق طوال ، وكان ايليكو وايلاريون يتبادلان النظر بخجل . واخيرا تساءل ايلاريون :

— ماذا ترى ؟

— السطر الاخير محكم النظم ، ودقيق العبارة .

— ولكنه قال ان القصيدة عن الحب ، ولكن ذكر الحب لم يرد فى كلمة واحدة .

— الفتى خجول !

حاولت ان افهمهما :

ــ انه شعر ، ايلاريون ! ولا يقال فى الشعر كل شىء !

ــ اولا اذا كان هذا شعر فانا شاهنشاه . ثانيا ، اذا كان الشعر عن الحب ، فيجب ان يرد ذكر هذا الحب .

استبد بى الغضب فصرخت :

ــ حلّ عنى ! انسان لا يعرف طعم النوم ويظل هائما طوال الليل وقد جن جنونه . اذا لم يكن هذا هو الحب ، فى رأيك ، فكيف يكون اذن ؟

قال ايلاريون :

ــ غرّبت وشرّقت ، يا عزيزى . ايليكو طول عمره مجنون ويهيم ليلا اكثر مما يطوف نهارا ، فهل هو عاشق ايضا ؟ ما رأيك ؟

هب ايليكو :

ــ شوف يا شيخ ، لا تهرف وخل لسانك فى فمك . الولد كتب كلمتين لا رأس لهما ولا اساس ، فما دخلى بالموضوع ؟

ثم انقض علىّ :

ــ خبىء الهراء الذى كتبته يا سافل .

بيد ان ايلاريون اوقفه عند حده :

ــ على مهلك ، فلننظر اولا فى هذا الشعر . انت تقول ان البدر يسبح فى السماء ، ثم تزعم ان هناك ريحا وثلجا . . كيف وفقت بين هذا وذاك ؟

باغتنى هذا السؤال المفاجىء .

ــ ثمة امر آخر . فانت تزعم انك تهيم فى الليل ، وحولك الريح والثلج . فما هو مبعث السعادة فى هذا كله ؟ هل تذرف دموع السعادة بسبب ذلك يا اهبل ؟

استشطت غضباً :

ــ ماذا تفهمان فى الشعر ؟ خرفتما الاثنان .

ادار ايليكو الخمر ، ورفع ايلاريون كأسه واحتضننى وقال بحنان :

— ليست هذه مصيبتك يا عزيزى . . . انا اعرف لماذا يصير الناس شعراء . . حينما كنت صبيا فى عمرك ، نظمت الشعر ايضا . أتذكر يا ايليكو ؟

بدون حبيبتى الهيفاء ما عدت اصبر
فلينقض العمر ، اعطنى الخنجر
لهيب الحب فى الاحشاء
يأكلنى ، بدون الوردة الحسناء .

هز ايليكو رأسه موافقا وقهقه :

— آنذاك اعتبرتك مجنونا ، ولكن كل شىء انتهى بعد حين . . . وسيمر كل عابر فى حياة هذا الصبى .

— دنيا يا ولدى . . . ولكن لا تكف عن قرض الشعر ، فان هذه ليست جريمة يعاقب عليها المرء . . . قد تعجب فتاتك بهذا الشعر اذا كانت حمقاء مثلك . وحتى اذا لم يرق لها ، فلا تبتئس . لقد وضع هذا الطائر الصغير — الحب — بيضته فى فؤادك . سيمر الزمن وتظهر الفراخ وتكبر ثم تطير . . وسوف تهيم على وجهك عاشقا . . نخب حبك يا ولدى !

كنت اقف خجلا مطأطىء الرأس استمع الى ايلاريون صامتا . . بدا لى انه يحمل فؤادى على راحته حانيا ، ويقرأ كل ما فيه من كلمات .

الحب الاول

— تشيغوغيدزه .

— موجود .

— كاواندادزه !

— موجود .

— سيخاروليدزه !

— مرض وذهب تشكونيا وتسنترادزه وبورتشولادزه وكوريدزه ونينيدزه وغلونتي لمرافقته الى البيت .

— كان الاحرى ان يرافقه الصف كله — قال المعلم الطيب القلب وواصل — فاشالوميدزه ! فاشالوميدزه ! ! فا — شا — لو — ميد — زه ! ! ! — ثم ضرب المنضدة بقبضته حانقا .

— انا هنا ، ايها الاستاذ المحترم .

— كنت هنا او لم تكن ، الامر سيان فليس منك اى نفع .

قال روملى بصوت متهدج :

— «ان تكون او ان لا تكون ، تلك هى المسألة» .

— روملى كالاندادزه ، تفضل اطلع من الصف .

— الجو بارد ، استاذ !

اثنيت على رأى المعلم :

— خذ حصتك من الحطب وارنى عرض اكتافك .

خرج روملى وهو يلسعنى بنظرات من نار . كانت نذر عاصفة مروعة تتجمع فوق رأسى .

— فاشالوميدزه ، ما هو الواجب المقرر لليوم ؟

— استخدام الصودا . . .

— اذن ، اتحفنا بجوابك .

قصدت السبورة وانا اجر قدما واؤخر ثانية .

— كلنا آذان .

— ثمة عدة اساليب لاستخدام الصودا . فان ايليكو تشيغوغيدزه يضع الصودا على طرف لسانه ويبتلعها دفعة واحدة دون ماء . اما ايلاريون شيفاردنادزه فانه يذيب ملعقة صغيرة من الصودا فى قدح من الماء الحار ؛ وجدتى . . .

— فاشالوميدزه ، اغرب عن وجهى . . . من يسكن بالقرب منه ؟

هبت مارى سيخاروليدزه : — انا .

— ستأخذين رسالة الى جدته بعد انتهاء الدروس . . . ما لك واقف ؟ اخرج من الصف .

— سوف اخرج ، ولكن من يبقى فى الصف ؟

— اخرج — همس المعلم وهو يختلس النظر الى محبرة ابتعدت دون توان . لا اعتقد ان السعادة التى غمرت قلب كولمبس عند رؤيته الارض كانت تعادل السعادة التى غمرت فؤاد رومولى لرؤيته اياي .

— طردوك ؟

— هذا من افضالك .

— لا تهرف ! ما دخلي انا ؟ انك اثناء الدرس كالحجر الاصم . . . تعتقد اننى اجهل كونك عاشقا ؟

— اعشق من يا احمق ؟ !

— مارى !

— اذا قلتها مرة اخرى اذقتك طعم قبضتى .

— وما دخلى انا ؟ تلاميذ الصف كلهم يتحدثون فى الموضوع .

— دماغك جامد من البرد ! وهل هذا وقت الحب ؟

— ويعنى ؟ جدتى تزوجت وهى فى الرابعة عشرة .

— طيب ، ثم ماذا ؟

— لا شيء ، ولكن اذا اردت فبوسعى ان ابلغها . . .

— لو كنت احبها لقلت بنفسى . . .

— تكذب ! مفاتحة الحبيبة ليست كالجواب على الاسئلة فى الصف ! بدون رسالة لن تحل المسألة .

— وهل كتبت مثل هذه الرسائل يوما ؟

— اوه ، أكوام !

تمعنت فى روملى بنظرة متفحصة ، لاستبين ماااذا كان يضمر خدعة ، ولكن عينيه كانتا تشعان بدفق من الوفاء الخالص ، فوثقت به .

— روملى ، انت لى بمثابة الاخ . . ليس ثمة داع للمراوغة . ساعدنى ! اننى احبها ، هل تفهم ؟

اطلق روملى ، من فرط ابتهاجه ، ضحكة اشبه بالصهيل ، ثم عانقنى ورفعنى عن الارض وحطنى ثانية واعلن :

— كل شىء على ما يرام . اترك الامر لى !

كان لدينا متسع من الوقت كبير ، فصعدنا الى صف خال . جلست وراء منضدة ، واخذ روملى يذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد شبك يديه وراء ظهره .

— لنبدأ . . «يا اعز الناس ، يا مهجة القلب وسلوى الفؤاد ! الحب اسمى مشاعر البشر . انه يجعل المبصر كفيفا ، ويجعل المحبين صما بكما مجانين . . .» .

اعترضت قائلا : — كذب !

— اعرف ، ولكن الرسائل تكتب هكذا . . . واصل : «منذ ان عانقت عيناى وجهك ، عرفت معنى الجمال المطلق . لقد فهمت مغزى وجودى واعتبرتك صنوا للسمو الروحى والاستمتاع الجمالى . . .»

صُعقت وسألت روملى :

— من اين اتيت بهذه الكلمات ؟

— بعث طالب من تبليسى رسالة الى اختى التى يعشقها .

— وهل تنتوى الاقتران به ؟

— كانت تنتوى . وفيما بعد ابلغها صديق آخر من تبليسى ان ذلك الطالب قد جنّ . . . واصل : «ليس ثمة ما يستدعى ان اخفى عليك ، اننى احبك أكثر مما احب الحياة . . ابتهل اليك

ان تصبحى من خلاّن الروح . لم اذق طعم الراحة منذ رأيت عينيك ورموشك ونظراتك ، اسنانك اللؤلؤية وشفاهك العقيقية وشعرك الذهبى ، اصابعك وايديك وكل شيء فيك . معك الى الابد ، او تفقد الحياة طعمها ! ها قد انتهيت . الى اللقاء ! . .»

سأل رومولى : «رأيك ؟» وشبك ذراعيه على صدره .

— لو اضاف الطالب بضع كلمات لتزوجته اختك .

— يُبكى الحجر !

هرعت الى البريد واشتريت مظروفا وضعت فيه الرسالة ثم بللت حواشيه ولصقتها وخبأته فى جيبى .

فى نهاية الدرس الاخير دسست الرسالة خلسة فى حقيبة مارى وتسمرت كالميت . لم اسمع الجرس الاخير ولم ار زملائى وهم يتفرقون . ظللت جالسا وراء المنضدة كالمصعوق بلا حراك ، حتى جاءت الساعية ، وخاطبتنى :

— منذ متى وانت تعشق المدرسة ، يا فاشالوميدزه ، حتى انك لا تذهب الى البيت ؟ ارفع رجلك ، علىّ ان اكنس .

— مرحبا ، خالة ماكا !

— سبحانك يا رب ! وكأنه يرانى للمرة الاولى .

— مع السلامة ، خالة ماكا !

— كن فى عونه يا رب — قالت المرأة ورسمت علامة الصليب وهى ترمقنى بنظرات مستريبة وخرجت من الغرفة مسرعة .

فى المساء كنا عند ايليكو نلعب النرد . اخذتنى اللعبة حتى اننى كدت انسى الرسالة . سألنى ايليكو :

— الم تنظم قصيدة اخرى ؟

وكشر ايلاريون عن اسنانه :

— اقرأ لنا ، لخاطر الله !

تناهى من الفناء صوت ينادى ايليكو .

— من هناك ؟
— هذا انا ، اولغا . حفيدى الارعن عندك ؟
— ادخلى ، ادخلى اولغا ! انه هنا .
دخلت جدتى الغرفة محدودبة الظهر ونزعت شالها ، ثم ركنت عصاها فى الزاوية وقعدت قرب الوجاق وظلت صامتة فترة قصيرة ، قالت لى بعدها :
— زوريكو ، ولدى ، كم عمر المعلم الذى يدرسكم الكيمياء ؟
— حم . . . حوالى ثلاثين ، خمسة وثلاثين عاما . . لماذا تسألين ؟ — قلت واخذت اصغى بكل جوارحى .
— اوليس . . . يعنى . . . به مسّ ؟
فقال ايليكو :
— وهل يبقى عاقلا من له مثل هذا التلميذ ؟
قاطعته :
— ماذا تقولين يا جدة ؟ الذكاء يخرّ من آذانه .
— ايلاريون ، انظر ، لخاطر الله ، ماذا يكتب لى هذا المعلم — ومدت رسالة الى ايلاريون .
سرت فىّ رعشة .
وضع ايلاريون نظارته وفتح الرسالة وتساءل :
— من اعطاك الرسالة ، يا اولغا ؟
— ماري ، ابنة لاديكو سيخاروليدزه .
شرع ايلاريون يقرأ متمهلا :
— «يا اعز الناس ، يا مهجة القلب وسلوى الفؤاد . . .»
سأل ايليكو جدتى :
— هل كتب الرسالة لك ؟
— لى ، وحق رأسك !
تيبس حلقى وسرت البرودة فى يدى وتفصد من جبينى العرق .



واصل ايلاريون :

— «منذ ان عانقت عيناى وجهك ، عرفت معنى الجمال المطلق . . .»

— لا ادرى اين رآنى الملعون — ضحكت الجدة واستدارت نحو ايليكو الذى كان جالسا فاغر الفم لا يصدق اذنيه .

— «لقد فهمت مغزى وجودى واعتبرتك صنوا للسمو الروحى والاستمتاع الجمالى . . .» .

قالت جدتى : — هذه الجملة استعصت علىّ .

رد ايلاريون عليها :

— وهل ثمة من يفهم الحب ، يا اولغا العزيزة ؟

تساءل ايليكو :

— ولكن كيف عشقها فى فترة قصيرة ؟

— كم مرة استدعيت الى المدرسة بسبب هذا الاهبل ! رآها هناك وعشقها الرجل .

— «لم اذق طعم الراحة منذ رأيت عينيك . . .»

— فقس الله عينه — قال ايليكو .

— «. . . ورموشك . .»

تلوى ايليكو من الضحك وانهبد على الارض . اصيب ايلاريون بالفواق ولكنه واصل القراءة :

— «. . ونظراتك ، اسنانك اللؤلؤية . .» اعتقد انه لم يصب هنا كبد الحقيقة .

فردت جدتى يديها وقالت :

— مصيبة على رأسه ، عن اى اسنان يتحدث !

— «. . . وشفاهك العقيقية وشعرك الذهبى ، اصابعك ويديك وكل شىء فيك . .» — واصل ايلاريون القراءة وقد اشرقت عيناه بالدموع .

— كفى ، بربك ، كفى ، لم اعد احتمل اكثر — انّ ايليكو وهو يكاد يغيب عن الوعى . فرغ ايلاريون من القراءة وهرع لاسعاف ايليكو . كانت جدتى تضحك بسخرية ، بينما تسمرت واقفا ، متحجرا كالمصعوق .

— متى تزوّج جدتك ؟ هل ستدعونا لحفلة العرس ؟ — تمتم ايليكو وهو يقهقه ثم انهبد ثانية .

قال ايلاريون :

— م م م . . يبدو ان شيئا ما ليس على ما يرام . . .

— آى ، آى ، آى ، اولغا ! ماذا فعلت بالرجل ؟

تعالى نداء من الفناء :

— عمو ايليكو !

— من هناك ؟ — تساءل ايليكو وهو ينهض .

دلفت مارى الغرفة وهى محمرة الوجنتين . ظلت زهاء دقيقة تنفخ على اصابعها المتجمدة ، وتضع يديها تحت ابطيها وتراوح على قدميها ، . ولما دب الدفء فى اوصالها قالت :

— كنت ابحث عنك يا جدة اولغا .

— انا هنا ، بنيتى . يا للرسالة التى حملتيها اليّ . كدنا نحن ، العجايز ، نطق من الضحك — ومدت الرسالة الى مارى .

— يا جدة ، الرسالة التى بعث بها المعلم . . ها هى جئت بها . . اما الرسالة الثانية . . . لا اعرف حتى مصيرها .

— سبحانك ! رسالة اخرى ؟ اقرأ يا ايلاريون ، يعطيك العافية .

— «ارجو الحضور الى المدرسة لسوء تصرف حفيدك» .

— مرة اخرى ؟ فضحتنى من جديد يا عديم الحياء ؟ — قالت الجدة وتناولت العصا ، فانطلقت الى الخارج كعيار نارى ، يلاحقنى صراخ جدتى :

— لا تضع رجلك على عتبة الباب ، يا سافل ! رح حيثما شئت .

سرعان ما خرجت ماري من الغرفة . سارت مطأطئة الرأس ساهمة دون ان تدس يديها العاريتين في جيبها . انحسر المنديل عن رأسها وتهدل على كتفها ، وانحدرت خصلة مجعدة من الشعر على جبهتها . ذكرتني بلوحة رسام معروف . لا اذكر اسمه . مرت ماري بجواري دون ان تلحظني . ناديتها هامسا : «ماري» .

توقفت . دنوت منها ومددت يدي بحذر لاعيد شعرها الى مكانه . لم تتزحزح .

— قرأت الرسالة ؟

لم ترد ، بل اكتفت بالقاء نظرة ثاقبة متأملة عليّ وواصلت سيرها .

— ماري !

توقفت ثانية .

— رومولي هو المذنب في كل ما حصل . . كان يملي عليّ . اردت ان اكتب شيئا آخر تماما ، ولكنه قال : هكذا ينبغي .

— هذه نكتة سمجة ، زوريكو . .

— لم اكن انكت ماري . . . انا ، ماري . . . هل تعتقدين انني رذيل حقا ؟ . .

— كلا ، لا اعتقد . . .

سرنا ببطء على الثلج الذي كان يهبط دون انقطاع ، والريح الزمهرير تئز . سرنا صامتين . مررنا بحذاء بيتنا واجتزنا شجرة الدلب المغطاة بالثلج .

— هنا يرقد كلبي مرادا .

— اعرف . . .

— كنت احب مرادا اكثر من اي مخلوق في العالم . انا

احبه واحب جدتي وايلاريون وايليكو على حد سواء .
— اعرف ، زوريكو .
— ويتزايد حبى يوما اثر يوم . . . وكان مرادا يحبنى ايضا من اعماق قلبه . . . كنت اتحدث اليه وكأنه انسان . كنا نفهم بعضنا . وحينما مات كدت ان انتحر . . . قد يجن الانسان فعلا من الحب ! بردانة ؟
— الدنيا برد .
— لا اشعر ببرد !
نزعت معطفى والقيته على كتفى مارى ، ولم ارفع يدى . وظللنا نسير هكذا على الثلج النادف . سرنا صامتين . اجتزنا بيت مارى .
— هل تشعرين بالدفء ؟
— نعم ، زوريكو .
— كنت تعرفين مرادا ؟
— اجل . .
— كان يهيم حبا بك . غالبا ما كان يقول لى : «مارى فتاة رائعة . زينة البنات . ليس لفتاة عيون مثل عينى مارى . مارى فتاة طيبة وذكية . .» كان مرادا يهيم حبا بك ، احبك كما احبنى ، بل واكثر ، ولم يكن ينبح عليك ابدا . . . وانت ايضا كنت تحبينه ، أليس كذلك ؟
— اجل زوريكو ، احببته كل الحب .
— مارى !
— نعم زوريكو ؟
احتضنتها بحنان وقربتها منى ودسست وجهى فى شعرها المنسدل . بكت مارى وبكيت . كان الثلج يندف كالقطن . كان ثمة ريح ، وقمر وشمس ، وحب ودموع وثلج كثير ، كثير . لو سئل ايليكو لقال

انه ما من شيء يبعث على السعادة : ريح وثلج وعالم ينهار . بيد انى كنت ابتهج للقمر والشمس ، لحبى ولندف الثلج البيضاء ، البيضاء .

احد عشر بودا من الذرة

كان لدى ايليكو خنزيرة من سلالة يوركشايرية اصيلة لها اذنان متهدلتان وعينان صغيرتان عكرتان وبوز قصير ناتيء مضحك . وكانت القرية كلها تسمى الخنزيرة سيرابيونا .

كانت الخنزيرة تنجب مرتين كل عام ، فى اوائل الربيع والخريف . وفى كل مرة كانت تلد اثنى عشر خنوصا ورديا ممتلئا كالكرة . وكان ايليكو يبيعها ، بالطبع ، حاصلا على مورد لا بأس به بالمرة . اما فى سنى الحرب فقد كان ايليكو يقايضها بالذرة .

وليس ثمة غرابة فى ان ايليكو كان يهيم بسيرابيونا ويسميها المعيلة ، ويرعاها ويهدهدها بالمعنى الحرفى للكلمة . حتى انه كان يحرم نفسه لقمة ليطعم سيرابيونا . وكان يذوب وجدا اذا سمع احدا يمتدح سيرابيونا ، فيخف ليضيّف الممتدح بالعرق والتبغ غير المفلفل ، ويعده بافضل خنوص من الولادة القادمة وبما لا يعرفه الا الله من الوعود ! كنا وايلاريون نعرف جيدا موطن الضعف هذا لدى ايليكو ونتبارى فى كيل المديح لسليلة يوركشاير .

وها نحن الآن جالسون تحت شجرة تفاح وارفة الظلال فى حديقة ايليكو ، نتطلع باحترام الى سيرابيونا المستلقية الى جوارنا ونتجاذب اطراف الحديث .

قال ايلاريون :

— يا لها من خنزيرة . لم ار فى حياتى مثيلا لها !

ردد ايليكو : «معيلتى ، كنزى» ودغدغ بحنان بطن سيرابيونا ، التى زرّت عينيها مغتبطة واخذت تقبع . اخذ ايليكو يتطلع جذلا الى

ضروعها المتوردة المنتفخة . اثنا عشر ضرعا ! اثنا عشر خنوصا من سلالة اصيلة ! بمشيئة الله ستضع سيرابيونا حملها بين يوم وآخر ، وحينها تنهال على ايليكو اكياس الذرة الذهبية . سألته :

— ترى من اين لك هذه الخنزيرة الاصيلة المحتد ؟

— اوه ، يا عزيز الروح ، هذه قصة طويلة . . . كانت ام جدة سيرابيونا من ضمن البائنة التى حصلت عليها جدتى كالنتى ، طيب الله ثراها ! ويقال انها كانت خنزيرة عجفاء مريضة ، بل ان جدى خاريتون خجل من ايواء سقط المتاع هذا وقرر طردها من البيت . .

— غلطان ، كان الافضل ان ينحرها ، — قال ايلاريون .

— ومن كان بحاجة اليها ، وهى مريضة ! كان ذلك زمان آخر ، وليس كما هى الدنيا الآن .

فاجبت : — الحرب الآن قائمة . . الناس فى فاقة . . .

— حقا تقول . . الناس اليوم فى ضائقة . . نحن امورنا ما زالت تحتمل ، اما فى لينينغراد ، فالناس تقول انهم كانوا يأكلون حتى القطط ايام الحصار .

فقال ايلاريون :

— لا تذهب بعيدا ! فانا هنا اخاف حتى ان ابتسم فى بيتى .

لم يفهم ايليكو فتساءل : «لماذا ؟»

— لانه . . . ما ان يلمح ديكى اسنانى حتى ينقض علىّ كالصقر ، متوهما ان فى فمى حبات ذرة .

نصحته :

— اذبحه اذن !

— وبعد ذلك تتولى انت الصياح صباحا وايقاظى ؟

واصل ايليكو :

— نكمل القصة . . حرن الجد خاريتون وقال ، لا اريد ان اراها فى بيتى . . . اما جدتى كالنتى فقد اصرت على رأيها قائلة :

انكم لا تفقهون شيئا ، فهى خنزيرة من سلالة اصيلة . اصبروا ولسوف ترون افعالها ! وكانت جدتى على حق فعلا ، فان سيرابيونا من سلالة ذلك الخنوص المريض .

قلت :

— انها زينة الشباب !

تهلل وجه ايليكو .

— زوريكو ، أما انت صبى ذكى . قل ، بشرفك ، الا تستحق سرابيونا اسمى فروض الاحترام ؟

عقب ايلاريون :

— بل اننى اعتقد ، يا ايليكو العزيز ، انك لا تفيها حقها من التقدير . ما حاجتك بصورة الجد خاريتون المبحلق العيون ، وكأنه نشال ؟ استدع مصور القرية بافلوشا واطلب منه ان يلتقط صورة فنية لسيرابيونا ، فلن تجد ما هو افضل منها لتغدو زينة الحائط .

— ايلاريون شيفاردنادزه ، اذا كنتَ افضل من هذه الخنزيرة فاننى اقسم بان انحرها واحمل نعشها من بيتى ، — رد ايليكو ولسع ايلاريون بنظرة فهمت منها ان رائحة عراك تفوح ، هذا فى حين ان قنينة العرق المنشودة تكاد تكون طوع البنان ! غمزت لايلاريون : هل هذا وقت المزاح ؟ وقلت :

— لا تلق بالا يا ايليكو ، لا ينقص خنزيرتك الا ان تنطق ، والا فهى لا تختلف عن الانسان بشىء .

رمقنى ايليكو بنظرة متفحصة ، ولكننى صمدت امامها . حينذاك نهض وهو يتمتم بشىء ، ليجلب العرق ، فانقضضت على ايلاريون :

— هل هذا وقت المزاح !

— اذهبوا جميعا الى الشياطين ! هل نغلق افواهنا ولا ننطق ؟ قد تأمرون بان نسجد لهذه الخنزيرة العفنة ؟

احضر ايليكو قنينة عرق وثلاثة اقداح ورغيفين متعفنين . احتسينا

اول كأسين بصمت واكتفينا بايماءة تحية واحد للآخر . وقبل ان نشرب الكأس الثالثة القى ايليكو خطبة قصيرة :

— زوريكيلا ، انت الآن تعتبر انسانا مثقفا . فقد حبوت الى الصف التاسع ، وان كان ذلك بعد مخاض عسير وطَلْق قاتل . الخلاصة ، اذا لم تكن المدرسة علمتك ، فقد تكون سمعت بان القرود اسلافنا .

— وهل يمكن ان يكون لك جد غير القرد . — قاطعه ايلاريون الذى لم يعد ثمة ما يخشاه ، فقنينة العرق امامه . بيد ان ايليكو تظاهر بانه لم يسمع ، فواصل :.

— انا ، وان لم اكن ضليعا فى العلم ، اعتقد ان هذا الرأى ليس صائبا تماما . فباعتقادى ان الناس المختلفين منحدرون من اسلاف مختلفين . فلو اخذنا ، مثلا ، سيرابيون سيبيرتيلادزه . فان اجداده من الخنازير بالتأكيد . قارن بين خنزيرتى سيرابيوانا وبين سيرابيون سيبيرتيلادزه ، او ليسا توأمين ؟ هى لا تنطق ؟ وما الضير فى ذلك ؟ او لا يولد بشر بُكم ؟ وهكذا هى سيرابيوانا .

— سأنقل ما قلت الى سيرابيون سيبيرتيلادزه — قال ايلاريون — ولسوف يريك اجدادك .

— خذ راحتك ! تعتقد انه لا يعرف ؟ بل أضرب مثلا احسن . هل ترى ايلاريون ؟ — قال ايليكو موجها الحديث الىّ ، فانصت ايلاريون بحذر .

— اجل ، اراه . . .

— وعناده معروف لديك ؟

— طيب ، معروف . . .

— هل شاهدته وهو يضحك ؟ انه نهيق حمار .

اضطررت الى الموافقة .

— وهل ترى اذنيه الطويلتين ؟

لم يكن ثمة مجال للاعتراض ، فقد اصاب كبد الحقيقة .

— والآن برهن لي ، اذا استطعت ، ان ايلاريون لم ينحدر من سلالة الحمير .

غص ايلاريون بقطعة خبز وسعل . التقط انفاسه واخذ قبعته واتجه صوب الباب دون ان ينبس ببنت شفة ثم التفت بأسف الى القنينة فعاد ادراجه ، ملأ قدحا وشربه دفعة واحدة وقصد الباب صامتا . ولكن ما ان وصل الى الباب حتى التفت وصرخ :

— اصبر لي يا ابليس الاعور ، سوف اجعلك تعض بنان الندم .

ضحك ايليكو جذلا .

. . . دنا اليوم المرتقب ، يوم ظهور خلف سلالة يوركشاير . بدأ الطامعون في أن يكونوا من اصحاب الخنازير يحجون الى بيت ايليكو . وكان كل منهم يسلم ايليكو بودا من الذرة ويأخذ مقابله ايصالا كتب فيه :

«انا ، ايليكو تشيغوغيدزه ، استلمت من المواطن الفلاني بودا من حبوب الذرة ، والتزم بان اعطيه مقابله خنوصا (خنوصة) بعد الفطام» .

وكانت المفاوضات تجرى بلا مشاحنات وفي جو من الود والتفاهم المتبادل ، باستثناء امر واحد : فان كل مشتر كان يسعى للحصول على وليد انثى . وحينها كان ايليكو يتشكى :

— يا عالم ! هل سمعتم بخنزيرة تلد اثنتى عشرة انثى ؟ !

وكانوا يردون :

— ولم لا . فقد انجبت زوجة كوتشوليا تسينتساذزه اثنتى عشرة بنتا .

— طيب في هذه الحالة تفاهموا مع كوتشوليا وسيرابيونا ، وليوزع عليكم كوتشوليا ايصالات ، وانا انفض يدى من الموضوع !

ويستبد بكوتشوليا الغضب :

— ايليكو تشيغوغيدزه ، لو لم تكن بهذا العمر لقطعت لسانك اللعين !

— لو لم اكن بهذا العمر لقلبتك على البطانة !

وكان بين المشترين من يحاول الحصول على سيرابيونا ذاتها . بيد ان ايليكو كان ينظر الى الحياة نظرة ثاقبة بعينه الواحدة ، يبيع روحه ولا يبيع سيرابيونا .

ظل اصلان من قرية سوريبى يلح عليه :

— ماذا تريد اكثر ؟ اعطيك مقابل الخنزيرة حصانا ومائتى لوح من احسن انواع الخشب . اتفقنا ؟

— شوف لك اهبل ، يا عزيزى اصلان ! حالة الحرب معلنة : قد يأخذون الحصان الى فرق الخيالة ، ولكن من ذا الذى يحتاج سيرابيونا ؟

— بع الخنزيرة قبل فوات الاوان . سوف تخسرها بكل الاحوال فهتلر قاب قوسين !

— من يعش ير ، يا اصلان . وهل بعلمك ان هتلر هجم علينا بسبب خنزيرتى ؟

عندئذ لم يتبق لاصلان ما يفعله ، سوى ان يشيح بيده خائبا ويولى الادبار .

ذات مساء زارنا ايليكو ووضع كيسا من حبوب الذرة تحت شجرة التفاح ، فسألته جدتى :

— ما هذا ، ايليكو ؟

— اعطيت يوم امس احد عشر ايصالا مقابل ذرية سيرابيونا ، وحصلت على احد عشر بودا من الذرة ، ولسوف تكفينى حتى الخريف .

استغربت الجدة واستفسرت :

— ولماذا احد عشر ايصالا ؟ فسيرابيونا تلد كل مرة اثنى عشر خنوصا ؟

— ساهدى واحدا منها الى حفيدك السافل . والذرة ايضا . لا تزعلي يا اولغا . انت تعرفين مدى حبى لهذا الارعن .

اشرقت عينا جدتى بالدموع وقبلت ايليكو فى جبينه قائلة :

— يا ارحم الراحمين ، اسعد بيت ايليكو تشيغوغيدزه وكل اهله واقاربه . ليمتلىء بيته بالخير .

— سنذهب ليلا الى الطاحونة ، فمرّ عليّ بعد ساعة — قال لى ايليكو وخرج . . .

. . . انبلج الفجر حينما كنت وايليكو عائدين نحمل اكياس الدقيق على اكتافنا . كانت الديكة تكتظ على اغصان الاشجار وتصيح حتى تكاد تتفطر حناجرها وكأن بعضها يتبارى مع البعض . وسمعنا بغتة عويلا تقشعر له الابدان ، فقال ايليكو :

— انها ماشيكو تصرخ . ترى هل استلمت ورقة نعى ابنها ؟ يا للمسكينة . .

استحثثنا الخطى . تناهى الينا عويل ماشيكو :

— ما اختارت اللعينة غير فناء بيتنا لتنفق فيه ! تعال جرب الآن ، واقنع هذا الاعور ، انه لا دخل لى بالموضوع !

افلت ايليكو الكيس ، وهو يرتقب خطبا جللا ، وخارت قواه فانهبد على الارض . انطلقت كالسهم الى بيت ماشيكو ، ولما دنوت من السياج تسمرت من الرعب : فقد كانت سيرابيونا منطرحة قرب السياج وهى تئن وقد هزلت حتى لم يعد من الميسور التعرف عليها . وانطرحت الى جوارها جثث اثنى عشر خنوصا صغيرا .

تساءلت ولسانى يكاد لا يطاوعنى :

— ماذا حصل ، ماشيكو ؟

— مصيبة ، مصيبة ، يا زوريكيلا . . . لقد مرت عبر هذه الفجوة فى السياج ، وهاك النتيجة . . . كم مرة حذرته : خل عينك على الخنزيرة يا ابليس الهرم ، ولا تدعها تسرح وتمرح كما تشاء !



لم يسمع النصيحة ، اللعين ! . . فليعض انفه الآن !

التم الجيران ، منهم المنكوب بالمصيبة ، ومنهم المتعاطف ، وثمة من جاء بدافع الفضول . كان ايليكو آخر من دخل الفناء . بدا شاحبا ضامر الوجه ، وظل يتطلع الى سيرابيونا طويلا ، ثم رفع قبعته والقى بها على الارض غاضبا وقال :

— اين انصافك يا رب ؟ يا عديم الضمير ! ما عسانى افعل الآن ؟

تعالت اصوات محاولة ان تسرّى عنه :

— شد حيلك ، ايليكو ، جاءت سهلة : الخنزيرة على قيد الحياة وسيكون كل شيء على ما يرام . لن تدع ذكرا ينام ليلته .

بيد ان ايليكو ظل يندب :

— والدائنون ، ماذا افعل لهم ؟

— تفرج ، بشكل من الاشكال . .

فخاطب ايليكو الدائنين :

— يا جيران ، يا اهل الخير ، توافقون على الانتظار حتى الولادة القادمة ؟

حلت لحظة صمت محرج ، ثم تساءل شخص :

— رأيكم ؟ ننتظر ؟

— وماذا باليد ؟ معقول ان نسترجع منه الذرة ؟ ثم انه لن يعطينا اياها اذا اردنا !

قهقه الجميع ، بل ان ايليكو ابتسم . بدا ان الحادث يوشك ان يصل الى خاتمة سعيدة ، غير ان سيرابيون سيبيرتيلادزه اندفع بغتة من بين الجمع كالمسعور وانقض على ايليكو :

— اسمع يا ابليس الاعور . احذرك للمرة الاخيرة : اما ان تغير كنية خنزيرتك اللعينة ، واما انا معذور فيما افعل ! اعلنها على رؤوس الاشهاد !

— انت اما سكران واما لطمتك حمّى ! ما لك تصرخ ؟
— ولسّه يسأل ! اجتمع نصف اهل القرية قرب بيتى ، مرددين :
هل سمعتم بان سيرابيون انجب خنازير ! النسوة يعزين زوجتى . . .
ولسّه يسأل ! . . سأقتلكما الاثنين ، انت وخنزيرتك العفنة !

انفجر الناس بالضحك ، واخذ ايليكو يقهقه مع الجميع .
بالكاد اقتيد سيرابيون الى البيت ولكنه ظل يحاول الافلات من الايدى .

— الذرية كلها اناث . . . اثنتا عشرة . . . — تمتم ايليكو وهو يسترق النظر الى كاتشوليا تسيتسنادزه .

تفرق الجيران بعد لأى ، وبقينا انا وايلاريون وايليكو وسيرابيونا .

— خربت بيتى ، — قال ايليكو .
— يلّه للبيت ، — قال ايلاريون .
— هيا ، ايليكو ، — قلتُ .

اقمنا تلك الليلة مأتما لتأبين الذرية التى نفقت قبل الاوان . . .

شهادة التخرج

دار الزمان دورته . وكانت الايام تتعاقب لا يشبه الواحد منها الآخر ، مثل الارغفة التى تخبزها جدتى . وكان كل يوم جديد يحمل فرحة جديدة . آباء وازواج وابناء واخوة يعودون الى ديارهم .

لم يكن لاسرتنا احد فى الجبهة ، بيد اننى كنت اخرج مع الجميع كل يوم الى الطريق لاستقبال الشاحنات العائدة بالجرحى والجنود الذين ازدانت صدورهم بالنياشين . كنت اعانقهم واقبلهم اسوة بالجميع .

من لا يعرفنى يبتسم ابتسامة خجلى والمعارف يربتون بحنان على خدى ، ويلحظون اننى كبرت واصبحت رجلا . عادت الينا الفرحة والسلام والسعادة ، التى لم تعد قريتنا تعرفها منذ اربعة اعوام .
واستقبلتها القرية كما تستقبل الام ابنا فقدته ثم عثرت عليه .

كان ذلك ربيع عام ١٩٤٥ . . .

ازهرت الطبيعة التى ايقظتها اشعة الشمس السخية من سباتها . القطعان ترعى على سفوح الجبال المخملية وعبير الزهور الحقلية يعبق فى الجو .

انتهت الدروس ، وكنا نستعد لامتحانات التخرج .

كنت وماري ننطلق صباحا الى طرف القرية ، حيث الطاحونة القديمة المهجورة ، ونجلس فى فيء شجرة جوز كبيرة ونذاكر دروسنا .

وها نحن اليوم جالسان تحت الشجرة ، نحضر للامتحان الشفهى باللغة الجورجية . ماري تقول :

— يجب ان تحفظ الشعر عن ظهر قلب . اسمع ، هذا لغالاكتيون :*

القلب ينبض بالامل
والسماء تشع بالنور
فيهتف الفتى : رويدك يا غادة
ترد الفتاة : اغرب يا مسكين

— لو كانت جدتى لقالت : «ان شاء الله تنشق الارض وتبتلعك يا عديم الحياء» .

تضحك ماري وتضع يدها على فمى : خلينا فى الدرس .

ثم اقرأ انا القصائد التى احب ، والتى سوف اقرأها اثناء الامتحان من كل بد ، وان لم تكن ضمن البرنامج :

الجبال تنزع عمامتها البيضاء
وترتدى السفوح اردية خضراء .
الشهد الحلو
ينساب من شفتيك

---

* هو الشاعر الجورجى المعروف غالاكتيون تابيدزه . **الناشر** .

تجلس ماري محتضنة ركبتيها بيديها ويمتد بصرها الى الافق البعيد ، الى زرقة السماء التى لا قرار لها ، حيث تسبح ندف بيضاء من الغيوم لا تكاد تلمحها العين .

عبر آلاف السنين اهتف ، استصرخ : تعالى
لتحرقني صواعقك اللاهبة ، وتجعلني رمادا تذروه الرياح

— اراك عدت لنظم الشعر من جديد ؟ — باغتنى الصوت وهو يرن قرب اذنى . قفزت كالمسلوع والتفت فرأيت ايلاريون واقفا يبتسم .

— نحن نتهيأ للامتحان . مرحبا ايلاريون .

— شايف ، شايف كيف تتهيأون . مرحبا ، — قال ايلاريون وجلس .

— كيف تسير الامور ؟

— نحن على وشك ان ننتهى ، — اجابت مارى .

— وعلى وشك النهاية ام البداية ؟

فقلت : — ما هذا الكلام ؟ لم يبق لنا سوى امتحان واحد !

— ايه ، يا عزيزى ، لا زالت امامكم الاختبارات كلها ! وارجوك لا تفتعل السذاجة ! . .

لم يخف عليّ شيء من مقصد ايلاريون ، غير انى رسمت امارات السذاجة على وجهى وهززت كتفى .

ظل ايلاريون يعمل بهمة وهو يحفر الارض بعصا ، ثم تساءل ما اذا كان لدى تبغ . ولما اجبته بالنفى اخرج كيسه ولف سيجارة متمهلا ، وجذب نفسا عميقا ثم نفث شريطا طويلا من الدخان ، وعلى حين غرة شرع فى القاء خطبة لم اكن قد سمعت منه مثيلا لها من قبل :

— حياة البشر ، يا اطفالى الاعزاء ، كالطاحونة . هل ترون العجلة ؟ العجلة هى القدر والماء المنحدر عبر الميزاب هو حياة البشر .

الماء قوة عظمى ، يا صغار . انه اقوى من النار ومن الريح ، الماء يفتت الصخر . ومثلما توجه الماء تدور الطاحونة . . . الناس يرتادون الطاحونة لاغراض مختلفة : منهم من يريد طحينا ومنهم من يريد الدقيق ، وثمة من يأتي بلا غرض ، يجلس طوال اليوم مصغيا الى الرحى ثم يمضي في سبيله . . . اذكر اننا شيدنا طاحونة الكولخوز ودفعنا بمياه نهرنا لاشى الى ميزابها . ظل الماء ينحدر ولكنه لم يقو على زحزحة العجلة من مكانها ، فقد خارت قواه . حينذاك اطلقنا الرافد الثاني ، فغدا كل شيء على ما يرام ، ودارت العجلة ، ويا ليتكم رأيتم كيف دارت ! هل تفهمون مقصدي من الحديث ؟ اذا كان هناك نهران فهذا اضمن واسلم ! . . وها انكما سوف تتخرجان قريبا من المدرسة وتعتزمان ، بالطبع ، مواصلة التحصيل . . . هذا حسن ، ولكن . . . عندما يرحل المرء الى المدينة ، فلا ادرى لماذا ، سرعان ما ينسى قريته واصدقاءه ورفاقه . . . هل ستذهبين الى المدينة ، يا بنيتي ؟ — باغت ايلاريون مارى بسؤاله .

— لا اعتقد ، عمو ايلاريون . . . لن اتمكن . . .

— اذن الدنيا بخير ! معناها ان زوريكو ايضا لن يهرب منا !

— ربت ايلاريون على كتفي ونهض . اطرقت مارى خجلة .

— العالم كله مفتوح امامكم ، يا صغار ، العالم كله . اما انا وايليكو فنحن اشبه بهذا الحجر القديم ، — قال ايلاريون واشار الى رحى طاحونة متروك وسط الفناء . ارتقى حرذون رمادى كبير الحجر واستلقى عليه مستمتعا بأشعة الشمس .

وزعت شهادات التخرج علينا في احتفال مهيب في مركز تجميع الشاى الذى كان يحول الى نادٍ في الحالات الاستثنائية .

لم تكن في مدرستنا فرقة للآلات الهوائية ، لذا استدعيت فرقة الموسيقى الجنائزية من مركز القضاء ، حفاظا على التقليد المتبع

فى عزف التحية الموسيقية بعد تسليم كل طالب شهادته . وقبل بدء الاحتفال الرسمى عزفت الفرقة ، تلبية لطلب من روملي اغنية «ابن امه» . ثم طلبت من الموسيقيين ان يعزفوا مقطوعة اكثر مرحا ، ودسست سبعة روبلات فى جيب رئيس الفرقة ، عازف الكلارنيت ، فاستجابوا لطلبى . وبعدئذ طُلب منهم ان يعزفوا الاغنية الشعبية الجورجية «خسنبيغورا» غير ان الرئيس رفض قائلا ان الفرقة عاجزة عن عزفها .

فى الظهيرة اكتمل النصاب ، وبدأ الحفل الرسمى ، واعتلى المنصة المدرسون وآباء التلاميذ الاوائل . ولم تحضر جدتى الاجتماع ، اذ المت بها وعكة ، لذا كان احد الكراسى على المنصة شاغرا .

افتتح مدير المدرسة الحفل بكلمة قال فيها اننا اصبحنا ، منذ الآن ، راشدين وبوسعنا ان نتصرف كما نشاء ، وحتى ان نطخ رأسنا بالحائط . وبعدئذ اخذ ينادى علينا حسب الترتيب الابجدى ، ويلقى بضع كلمات عن الخريج ثم يسلمه الشهادة ، يشد على يده بقوة وهو يتطلع الى المصور بافلوشا الذى كان يرفع عاليا زر التصوير . وكان الخريج يظل متسمرا ، هلعا حتى يفرغ بافلوشا من العد حتى رقم عشرة ثم ينزل يده ، معلنا انتهاء التصوير ، وحينها تبدأ الفرقة بعزف التحية .

عندما ورد اسمى تصور الموسيقيون ، لسبب ما ، انهم فى جنازة فأخذوا يعزفون لحنا جنائزيا .

حدج المدير بنظرات نارية ، فشرعت الفرقة توا تعزف التحية .

كان من المقرر ان تعقب الحفل الرسمى حفلة فنية تنشد فيها جوقة القرية اغانيها . وكنا قد سمعنا هذه الاغانى الف مرة على اقل تقدير ، لذا تفرق الجمع كل الى بيته .

كادت جدتى تخنقنى فى احضانها عندما رأت الشهادة . قالت : «الآن لن يقربنى عزرايئل» وبللت شهادتى بالدموع . بيد ان امارات الصرامة والجد بدت فجأة على وجهها ، والقت نظرة مستريبة علي

ووضعت الشهادة على الطاولة ، ثم خرجت من الغرفة صامتة . لم افهم شيئا البتة .

بعد ربع ساعة عادت جدتى يتبعها ايليكو وايلاريون .

— تفضلوا يا جيران ، — قالت جدتى فجلس ايليكو وايلاريون .

وخاطبنى ايلاريون :

— ما خطبك هذه المرة ؟

اجبت وانا اسلمه الشهادة :

— منحت شهادة التخرج .

— ولذا ندهت عليكما ، — قالت جدتى ، — شوفوا ، لخاطر الله ، شهادة صحيحة ، ام انها مثل ورقة الثناء التى جلبها لى فى العام الماضى ثم اتضح انها لتلميذ آخر .

اخذ ايلاريون الشهادة وظل يتفحصها طويلا . وتملّى بانتباه الختم والتواقيع ، بل وحتى رفعها نحو النور ثم سلمها الى ايليكو ، الذى اعاد العملية ذاتها ولكن بمزيد من الدقة ، واعادها الى جدتى قائلا :

— شهادته مضبوطة على اربعة وعشرين قيراطا .

— متأكد ؟

— طبعا ! اولا لانه ما كان بوسعه الحصول على قسيمة فارغة ، ثانيا الختم غير مزيف ، ثالثا الجهة الثانية مكتوبة باللغة الروسية وهذا ما لا يحسن فعله اى من تلاميذ معلمتنا زابلونا ، ورابعا العلامات كلها ثلاثة . لا توجد حتى اربعة واحدة* .

تنهدت جدتى وقد انزاح عن كاهلها العبء :

— والحمد لله ! طيبت خاطرى ، يا ايليكو !

اخذ ايلاريون الشهادة مرة ثانية :

---

* يقصد نظام العلامات من خمس درجات : ٣ ناجح ، ٤ جيد ، ٥ ممتاز . **المترجم** .

— شها — د — ة الـ .. ضـ .. ج* — تهجّى ايلاريون الكتابة ، ثم دنا منى وقرع رأسى باصبعه واصاخ ثم خاطب ايليكو متحسرا :

— ايه ، يا اخ ، لو كان هذا ناضجا ، فانا شاهنشاه .

— يمشى الحال ... الطماطم ترسل الى سوق المدينة خضراء لكى لا تفسد ، بل يكتمل نضجها فى الطريق .

— اذا كان الامر هكذا فلنقرر : ماذا ينبغى الآن ان يفعل ، اين يدرس ، اية مهنة يختار . يجب ان يخطط المرء حياته ، والا فانه سيذهب الى المدينة ويظل يهز اذنيه كالحمار .

— الى اية كلية تريد الانتساب ؟ — سألنى ايليكو فهززت منكبى .

— حفيدى يجب ان يصبح دكتورا ، فقد تقدم بى العمر وانا بحاجة الى من يرعانى .

فرد ايليكو :

— يبدو انك تريدين ان يكون موتك على يده من كل بد ؟

تساءل ايلاريون :

— وما رأيكم بكلية التاريخ ؟

— لو كنت فى مكانه لدرست القانون ، — قال ايليكو ، — خذوا حاكمنا مثلا : لقد اصبح آدميا . وصلنا بنعل مرتق ، وها هو الآن يتبختر فى معطف من الجلد وجزمة من المطاط !

— ليبق بعيدا عن القانون من له مثل هذا القلب . انه عاجز حتى عن اعتقال اى شخص .

— الا ترون من الانسب ان يلتحق بكلية الآداب ؟ انه ينظم الشعر ولسانه ذرب ، ما شاء الله . وهل يحتاج الاديب اكثر من ذلك ؟

سألت جدتى :

— الا توجد كلية تخرج علماء حاصلين على الاستاذية دفعة

---

* التسمية الحرفية لشهادة التخرج . **المترجم** .

واحدة ؟

— ليه لا ، توجد مثل هذه الكلية ، وقد تخرج منها ايليكو ، — قال ايلاريون مبتهجا .

انقض عليّ ايليكو :

— ما لك صامت ، يا ارعن ! انطق ، الى اية كلية تريد الانتساب . انطق ، فقد اطلق ابو المتاخير للسانه العنان .

قلت فجأة وبنفس واحد :

— اريد ان اصير فنانا .

ساد صمت كصمت المقابر ، ثم قطعته جدتى وهى تولول :

— الله يعمى عيونى ! تريد تصير ابن شوارع وصاحب حريم ؟

وتمتم ايليكو :

— اصابت المسكين لوثة .

استمر النقاش حتى الفجر ، ثم وافق الجميع على رأى ايلاريون الذى قال ان من كان له سروال كسروالى ، يجب ان يلتحق بكلية الاقتصاد ليضمن مستقبله اقتصاديا وماديا .

نزعت جدتى عن رقبتها سلسلة فضية عُلق بها مفتاح مسطح كبير واتجهت نحو الصندوق القديم ورفعت غطاءه واخرجت من هناك ، بحركات احتفالية مهيبة ، سروال جدى المخملى الاخضر الشبيه بسراويل الفرسان ، وجزمته الجلدية اللامعة الضخمة وبلوفرا صوفيا طويلا بجيوب ملصقة ، وحزاما فضيا وقبعة عالية من الفراء وضعت ذلك كله امامى ومسحت بطرف ثوبها دموعا انحدرت على خديها وقالت :

— خذ يا بنىّ ، البس . فلا يمكن ان ابعث بك الى بلاد الغربة وانت بأسمالك ! يجب ان تكون زينة الشباب ، يا عزيزى .

احتضنت جدتى بقوة وقبلتها فى عينيها بحنان ، ثم اندفعت الى غرفة ثانية وغيرت ملابسى بسرعة وعدت لاقف امام «لجنة الاختبار» .

كشر ايليكو وقال :

— يا سلام ! سيمونا دوليدزه* بعينه !

. . . في الصباح الباكر من يوم احد كنا ، انا وجدتي وايليكو وايلاريون ، نقف على قارعة الطريق رافعين ايدينا لكل سيارة عابرة . كان رذاذ المطر يصفع الوجوه ، وثمة ريح تهب والجو بارد . نصحتني جدتي :

— اجلس جنب السائق !

وارشدني ايلاريون :

— لا تنس اكل الثوم ، والا فقد تصاب بعلة .

وعلمني ايليكو :

— حالما تدخل عربة القطار اسكب القولونيا على جسدك ، فهي خير مضاد للقمل وكل الحشرات .

وطالبت الجدة :

— شوف عندك يا ولد ، بكرة الرسالة يجب ان تكون عندي .

— ابعث برقية فهذا افضل . بل الاحسن ان ترسل مكتوبا مع مسافر ، يصل اسرع من البرقية !

— اياك ان تختلط مع زعران المدينة .

— ارجع بسرعة !

— اذا احتجت لخمر ، فاكتب ، لا تخجل .

توقفت ، اخيرا ، سيارة شحن ، وكانت هناك امرأة وطفل يجلسان قرب السائق . دارت بي الجدة ثلاث مرات — عن عين الحسود — وقبلني ايليكو وايلاريون واحدا بعد آخر ، ثم صعدت الى ظهر الشاحنة ، وانطلق بها السائق .

بغتة ظهرت على الدرب فتاة تحمل صرة . وظلت تعدو بكل قواها . السيارة تسرع في سيرها ، والفتاة تستحث خطاها . وبالتدريج

---

* سيمونا دوليدزه — بطل شعبي جورجي . **الناشر** .



اخذت حركتها تتباطأ ، ثم دنت بخطى وئيدة من المودعين . ظلت الفتاة تنظر طويلا في اثر السيارة المبتعدة ، ثم استدارت ودفنت وجهها في صدر ايليكو . يبدو انها بكت . بكيت انا ايضا . انطلقت السيارة لا تلوى على شيء وهي تبعدني اكثر فاكثر عن احبابي الاربعة .

كان ثمة رذاذ مطر وريح وبرد . هناك ، في الافق البعيد يقف اربعة . ثمة فتاة تبكي على صدر ايليكو . بكيت انا ايضا . كنت ابكي وافرح لانها تبكي . كان ثمة مطر وريح وبرد ، وكانت هناك شمس وحب ودموع فرح . والراجح انه حتى ايليكو لم يعد يستغرب كيف تلتقي الشمس والمطر . ولماذا يأرق المرء ، ومن اين تنحدر دموع الفرح هذه ، ولماذا احس بهذا الدفق الغامر من السعادة .

ظلت السيارة في انطلاقتها . ولم اعد ارى احدا على قارعة الطريق . كنت واقفا على ظهر السيارة اتمتم :

— وداعا جدتي .

— وداعا ايلاريون .

— وداعا ايليكو .

— وداعا ماري .

القطار

انزلني السائق عند محطة القطار في مدينة مخارادزه ، وطالبني بالاجرة . ففككت الحزام الفضي ورفعت طرف البلوفر الفضفاض واخذت افك ازرار السروال . بهت السائق في البدء واخذ يتلفت هلعا ، ثم امسك بيدي : — انت مجنون ؟

— وكيف افيك اجرك ؟

— امّا مغفل ! وهل يتطلب هذا ان تنزع سروالك في وضح النهار ؟

— ولكن الجيب من الداخل ! — طمأنت السائق وواصلت مهمتى . بعد بحث مضن افلحت اخيرا فى اكتشاف الجيب السرى ، واخذت افتقه بيد وانا امسك بالاخرى السروال المنحسر . وما ان اخرجت النقود وشرعت اعدها ، حتى سمعت صوتا يشبه نخير الحصان . عطس المحرك بضع عطسات مدوية ثم اطلق عليّ سحابات من الدخان الازرق . وبينما كنت التقط انفاسى دارت السيارة وتوقفت لصق وجهى . ومد السائق سحنته الحمراء الضاحكة وانزل قبعتى على انفى وقال ساخرا :

— فى هذا الكفاية ، إلبس ! لست بحاجة الى نقودك .

عطس المحرك مرة اخرى وانطلقت السيارة من مكانها ، فصرخت فى اثرها :

— يعطيك العافية !

اطل السائق من سيارته الهرمة ولوح بيده محييا ، بينما لبثت انا واقفا وسط الساحة وسروالى منحسر الى النصف اتطلع فيما حولى مذهولا .

. . . اتضح ان قطع الطريق الى تبليسى اسهل بكثير من الحصول على بطاقة الى هناك . توصلت الى هذه الحقيقة بعد حديث قصير مع بائعة البطاقات . لذا تخليت عن اية نية لشراء بطاقة واتجهت الى الرصيف مباشرة .

وصل القطار بعد ساعة . حملنى التيار البشري والصقنى بسلم العربة . احتبست انفاسى . اردت ان اصرخ . بيد ان فمى كان مسدودا بعقب مضيفة العربة الحافية ، واخذت ارفس كدجاجة معلقة من رقبتها . ومما زاد فى الطين بلة ان ركبة آدمى ما كانت قد انحشرت فى ظهرى ، بينما اخذ شخص يشد شعرى على نحو موجع . وعندما تيقنت من ان شهادتى سوف تضيع هباء استجمعت قواى الخائرة وانشبت اظافرى فى عقب المضيفة . تعالى صراخ القطار والمضيفة فى وقت واحد . واشتد الهرج والمرج .

— ما لك جامد فى مكانك ؟ تحرك !
— ارفع رجلك من فوق رأسى !
— لا تخف يا عم ، رجلى نظيفة !
— طيب ، اذن خلّ الرجل الثانية !
— طلّع ، طلّع !
— يطلّع ماذا ؟
— ما فى شىء ، يطلع لك عينك !
— ايها المسافرون المحترمون ، دعونى امرّ ، عندى بطاقة !
— خذ بالك ، لا تفقدها ، امسكها بقوة !
— امسكوا النشال !
— اترك الشنطة يا سافل ، فيها كمثرى !
— يا شرطى ، إرم !
— ارم لأين ؟ كيف اعرف من السارق ؟
— اذن اطلق النار علىّ !
— بسرعة ، بسرعة ، اصعد يلّه !

تعالى صفير ، وضرب الناقوس مرتين ، ثم دفعتنى ركلة مباركة الى العربة ، وبدا ان القاطرة كانت تنتظر هذه اللحظة فاختضت فجأة واطلقت صفيرها محاولة ان تطغى على عويل وسباب من تبقى على الرصيف .

طابت الخواطر بعد برهة . صعدت الى الرف الثالث ووضعت الصرة تحت رأسى وسحبت القبعة على انفى . . . دخان اللفائف يأكل العيون . العربة تنود وتصر بانتظام . العجلات تدق كالطبول برتابة . يذكرنى هذا الصوت بشىء ما قريب ، ولكنه بعيد ، بعيد حتى اننى لا اقوى على استحضاره . يغالبنى النعاس . . . يأخذنى التيار بعيدا . . . الضباب يلف كل شىء مرة واحدة . . . عندما يغلبك النوم فان الجفون تغدو اثقل ما فى الدنيا . . . ما هذا الطرق ؟ ها ،

انى فى الطاحونة . انه صوت الرحى . انام فى انتظار الدقيق .
وبغتة :

— زوريكووو ! — تندهنى جدتى .

— جاى !

— زوريكووو ! — تندهنى جدتى مجددا وهى تضع يدها فوق عينها لتتقى الشمس .

— جاى ، جدة ، جاى ! — اصرخ وانا اركض مرتقيا مرتفعا لفه الضباب .

— هيه ، هيه ! زوريكيلا ! الى اين ؟ هيه ، هيه ! — يختلط صفير القاطرة بصراخ جدتى الهلع .

— ايلاريون . . . ايليكو . . . ايلاريون . . . ايليكو ! . . . — يقول صريف العجلات .

— الجسر . . . — أتانى صوت وانا بين اليقظة والنوم .

— هيه ، يا اولاد الحلال . افتحوا النافذة ، ساختنق ! — يقول آخر .

— يجب ان نتنفس بالدور والا فان الهواء لن يكفى للوصول الى تبليسى ، — يقول ثالث .

— لمن هذه الشنطة ؟ ارفعها حالا ، والا رميتها من النافذة !

— اطللت برأسى هذه المرة من الرف ورأيت المتحدث . كان له انف مدبب شبيه بالفأس ، ووجهه كله مرهف كحد الفأس .

— خليك تجرب بس ! اقذفك فى اثرها ! — رد عليه مسافر ذو وجه ملىء بالنمش كبيضة الديك الرومى . — اربعة افواه ينتظرون هذه الشنطة وما عاد عندهم صبر .

كرر «الفأس» المتجهم :

— لا اعرف من ينتظر ، ولكن رجلى لم استعرها بالاجرة . قلت لك ارفع الشنطة والا رميتها من النافذة .

حمل «بيضة الديك الرومى» شنطته على مضض وتطلع الى الرف العلوى وصاح عليّ :

— هيه ، لا اعرف اسمك !

— زوريكو .

— اسمع . انزل حالا ! تمددَ هناك كالامير . هذا المكان للشنط ، فاهم ؟

— وشنطتك احسن منى ؟

— شوف يا ولد ! فى هذه الشنطة طعام بثلاثة آلاف روبل ، فهل فى رأسك ما يساويها ؟

— بدون اهانات يا عم !

— تفضلوا بقبول اعتذاراتنا ، ايها المحترم ! والآن انزل لتحت ، وتحرك بسرعة !

— لن انزل ! تتصور انه لم تكن لدى شنطة فى البيت ؟ بلى ، ولكنى لم احملها معى . القطارات ليست للشنط فمكانها تحت الكنبة . اى ، نعم !

استبد الغضب بـ«بيضة الديك الرومى» :

— يا ناس شوفوا بس ، كيف صار يتحدث معى هذا البليد ! انا عندى ، لو عرفت ، اربعة اولاد وكلهم اكبر منك .

فسأله «الفأس» :

— وهل كنت سترتاح لو رأيت ابنك يُطرد من مكانه ؟

— هكذا ؟ وانت معه ايضا ؟ طيب ، اذن دع الصبى يتمدد على الرف ودع شنطتى فوق رجلك . ما يفرق عندى ! — قال «البيضة» وجلس .

حينذاك انقض عليّ «الفأس» :

— انزل ، ابن البارحة ، سامع ؟

قلت «لن انزل» واخذت احدق فى السقف ، فصرخ «بيضة

الديك الرومى» : — يا مضيف !

دس مضيف العربة مصباحه اولا عبر الباب ، ثم مد انفه وطالب بالبطاقات . بيد انه كشر للتو ساخرا من سذاجته وامرنا بان نجهز النقود .

اتضح ان لدى بعض المسافرين بطاقات . حدجهم المضيف بنظرات متهكمة وخرج .

حل صمت . كان كل واحد يفكر بشؤونه . هدهدنى تمايل العربة الرتيب فعدت اغط في النوم فوق الرف الذى انتزعته فى معركة . . . ها انى ارى ، كرؤيا العين ، ايليكو يدخل فناءنا ، حاملا على ظهره كيسا من الذرة . ها هو يضع حمله تحت شجرة التفاح ويجلس فى فيئها يدخن لفافته .

— ايليكو ، اعطنى لفافة ! — الحف عليه بالرجاء ولكنه لا يعيرنى اهتماما ، متطلعا الى الافق البعيد .

— يا عم ايليكو ، يا عزيزى ، ضيفنى من تبغك ، لخاطر الله ! هذا انا ، زوريكو ، الا تعرفنى ؟

ينهض ايليكو ويغيب فى الضباب .

— ايليكو !

— من هناك !

ارتعدت كالملدوغ واستيقظت . كان المسافرون نياما . وسيول المطر تدق نوافذ العربة ، والاشجار المبتلة تتسابق فيما بينها باحثة عن ملجأ تلوذ اليه . . . سقطت على رأسى بغتة قطرة باردة ، تبعتها اخرى ، ثم اخذت القطرات تترى سراعا . غيرت مكانى . كان ثمة بركة ماء صغيرة على الرف . شققت لها طريقا باصبعى فسال الماء نازلا على رأس مسافر .

— ماذا دهاك ، يا مسكين ؟ — ندب المبتلى وهو يمسح جبهته بكفه ويشم يده المبللة بريبة .

فاجبت بهدوء :

— لم يحصل لى شىء . انه المطر .

— طيب ، دبر حالنا . .

— ادبر ماذا ؟ اصعد وابدّل قرميد السقف ؟

— دعك عن الثرثرة ، يا ابن الكلب ! الا تستطيع ان تسد الثقب ؟

اقعيت على الرف وتحسست فى السقف ثقبا صغيرا ادخلت فيه اصبعى . انحدر الماء على يدى الممدودة وتجمع فى عبّى . حللت الحزام وجعلت الماء يتسرب . سرعان ما شعرت بان جزمتى قد امتلأت بالماء حتى نصفها . فقلت :

— ما ينفع شىء . — واخذت اهبط .

قال المسافر ذو البطاقة متبرما :

— حرام الفلوس التى يأخذون منا !

فانبرى له واحد من دون بطاقة :

— انت آخر من يتكلم ! يسافر بالمجان ويتشكى .

قفزت الى ارضية العربة فانبجس الماء من جزمتى كالنافورة بالغا السقف . نصحنى «الفأس» :

— انزع جزمتك يا صبى ، والا اخذت برد . هات رجلك لأساعدك .

— لا بأس ، يا عم ، لا تقلق حالك ، — ارتكزت بيدى على رفين ورفعت جسدى من الارض فخرجت من الجزمة دون عناء .

هتف «بيضة الديك الرومى» :

— عجايب ! كيف يعذب الانسان نفسه بهذا الشكل ؟ كان يجب ان تخيط لنفسك جزمة اوسع .

ضحك الحاضرون . انحشرت بصعوبة بين مسافرين . توقف

المطر فتنفس الجميع الصعداء . شعرت بالدفء .
عاد «الفأس» الى اسطوانته القديمة :
— اسمع ، ارفع حالا هذه الشنطة الملعونة وإلا ، اقسم بالله ، سوف ارميها من النافذة .
رفع «بيضة الديك الرومى» الشنطة بصمت ووضعها على رفى .
حل الصمت من جديد .
بغتة عطس احدهم عطسة خفيفة ، فتعالت جوقة اصوات تقول :
— يرحمكم الله . — وبعد نصف ساعة لم تعد تسمع غير تمنيات الرحمة وطول البقاء والتوفيق ، وكأن اولاد عمومة قد اجتمعوا بعد فراق طويل .
بادر «الفأس» الى القول :
— لا ، لا يمشى الحال هكذا . يجب ان نفعل شيئا قبل ان نصاب جميعا بذات الرئة وتوضع علامة الصليب الاحمر على العربة .
— يبدو انه ليس بليدا كما كنا نتصور ، — قال «بيضة الديك الرومى» واخرج قنينة عرق من مكان ما .
وادلى بدلوه شاب اشقر لم يلحظه احد من قبل :
— لدى نبيذ ، نبيذ كثير ، هناك على الرف الثالث . لننزل البرميل .
فرد «الفأس» وهو يفرك راحتيه مغتبطا :
— كلا ، ليس وقت النبيذ الآن . . احسن ان نشرب العرق .
— كما تشاؤون ، — قال الاشقر موافقا بنبرة مجاملة .
قال المسافر المتأنق ذو البطاقة للشاب الاشقر :
— الافضل ان تنزع السدادة عن البرميل ، فقد ينفجر ويبللنا جميعا .
نهض الاشقر ونفذ الامر صامتا ثم عاد الى مكانه .

شرع المسافرون يضعون على المائدة مختلف المأكولات . تبرع واحد منهم بقنينة عرق ، واضاف «الفأس» اثنتين اخريين واحتل منصب التمادا* .

— يا رفاق ! ليس بينكم رفيق لى ولكنكم تعرفون كيف تسير الامور فى القطارات . الناس اثناء السفر يرتبطون باواصر المودة . من نحن ؟ من اى ديرة حملنا الشيطان ؟

قال المسافر ذو البطاقة :

— انا عائد من مأمورية .

فواصل التمادا وهو يؤشر باصبعه الى «بيضة الديك الرومى» :

— عظيم . ومن هو ؟ من اين ؟ لا يعرفه الا ابليس .

هب «البيضة» من مكانه :

— كيف «لا يعرفه الا ابليس» . ما للسانك فالت ؟ سد فمك وإلاّ . . .

— دعنى اتم النخب ، ما لك استشطت ؟ عم كنت اتحدث ؟ اى ، نعم . هل تعرفوننى ؟ كلا ! وهل اعرفكم ؟ كلا ايضا . فى وقت آخر ، انا ابصق عليكم جميعا ، ولكن ها هنا يكمن سحر القطار ! لقد جمعنا وجعلنا اقارب واصدقاء ! لذا نشرب نخب القطار ، — انهى «الفأس» النخب وكرع كأسه دفعة واحدة .

— نخب قطارنا !

— يحيا القطار !

— ايه . . . فعلا غريب . . نخب القطار ! — قال المسافر الانيق ذو البطاقة وناولنى القدح .

— هذه ، يا رفاق ، اول مرة اسافر فى القطار .

---

* من عادات شعوب القفقاس اختيار تمادا — عريف للحفل — فى جلسات الشراب . **المترجم** .

فرد «بيضة الديك الرومى» :
— يا لك من انسان سعيد .
— حذرنى ايليكو وايلاريون قبل السفر ، من وجود كثرة من النصابين والمحتالين فى القطار . يظهر انهما كانا على خطأ . فهذا مثلا . . . ما اسمك يا عم ؟ — سألتُ «الفأس» .
— امباكو !
— نعم ، امباكو . حينما رأيته للمرة الاولى ، فكرت : اية ريح ملعونة اتت بهذا المخلوق ؟ — ثم سألت «بيضة الديك الرومى» : — وما اسمك يا عم ؟
— اسمى انتيبو وكفاك ثرثرة . اشرب واجلس !
— نعم . بدا انتيبو للمرة الاولى مجنونا .
— والآن ؟
— وماذا الآن ؟ الآن وحّدنا القطار . نخب القطار ، — اختتمت كلامى وشربت .
اترع التمادا الكأس الوحيدة من جديد . اراد ان يشرب النخب الثانى وقوفا ، ولكن رأسه اصطدم بالرف فأوجعه ، فآثر الجلوس وشرع يقول :
— حينما علّم الله القردة الكلام ، فان اول كلمة تبادلوها كانت «مرحبا» . ثم قطعت اشجار الغابات وشيدت البيوت ومدت السكك الحديد ، وسار عليها القطار . وصعدنا القطار وقلنا لبعضنا «مرحبا» و . .
— لم اقل لاحد «مرحبا» .
— هذه قضية ذوق .
— لتبق على طرف اللسان دوما هذه الكلمة الدافئة «مرحبا» — اردف امباكو .
— هذا نخب جيد . عجيب غريب ! ماذا تعنى التحية ؟

مسألة عابرة ، ولكن ثمة من لا يريد ان يقول لانسان آخر هذه الكلمة الطيبة . اذكر ان لى رفيقا درسنا معا فى الجامعة . . .

— من اية قرية انت ، افندى ؟

— من نيغويتى .

— انعم ، انعم . وكيف محصول السنة ؟

— الحمد لله ، لا بأس . عندى رفيق . . .

— لا يبادلك التحية ؟ نعرف ذلك . . . ولكن هل تعرف انت ان لدينا كأسا واحدة فقط ؟ اشرب ، لخاطر الله ، بسرعة .

. . . وصلنى الدور مرة ثانية . امسكت القدح وتمعنت فى السائل ، روح الحياة التى تبعث الدفء فى الجسد ، واستبدت بى رغبة فى ان احدث هؤلاء الناس الذين لا اعرفهم عن جدتى وايليكو وايلاريون ، عن ماري . اردت ان اغنى واصرخ . غير اننى خجلت ، خجلت مثلما يخجل كل صبى ريفى بسبب سرواله المرقع ونعاله البالى .

— صحتكم يا خلاّن ، — قلت ذلك ودمعت عينى وجلست بسرعة .

— هيه ، يبدو ان بطلنا يبكى — ووجه «الفأس» كلامه «للبيضة» . — كم نسبة الكحول فى العرق ؟

— ثمانون بالمائة بالتمام والكمال !

فقلت وانا امسح دموعى :

— عشرون ، ومستعد للرهان ! وما بكائى بسبب العرق اطلاقا ، بل مجرد ان قشة لصقت على حدقة عينى .

— طيب ، ما فى مشكلة . اواصل يا رفاق ! — علا صوت التمادا — ها اننا قد قلنا ان الله خلق القرود ، ومنهم تنحدر سلالتنا . هذا هراء . . . غالبية البشر انجبهم الوالدان ! لولا الآباء والامهات لما شربنا حتى هذا العرق . ولو لا العرق لما استطعنا ان نشرب نخب الوالدين . لم اصادف بعد سكرانا واحدا لا يتذكر والديه .

قال الشاب الاشقر :

ــ حينما اسكر لا اذكر شيئا اطلاقا .

فرد «البيضة» :

ــ الحمد لله انك تذكر هذا !

بعد نخب الوالدين حملنا الاشقر بحذر واضجعناه على الرف الثالث بجوار برميله . حذرنا «الفأس» :

ــ اجعلوا وجهه الى الجدار ، فان فواقه مثير للريبة .

ولكن سبق السيف العذل ، اذ انفجر الاشقر كالبركان . ولم نكن قد ثبنا الى وعينا حتى كانت قلنسوة التمادا قد اصطبغت بلون ارجوانى . واخذ «بيضة الديك الرومى» والمسافر الانيق ذو البطاقة يتطلعان الى بعضهما مذعورين . وكنت انا فحسب ، بعد ان انقذتنى معجزة من الحمم المباغتة ، اقف كالمسيح بين الآثمين واقهقه .

ــ يا للسافل ! ــ صرخ «الفأس» ونزع اللفاع من على كتفه وقذفه من النافذة . وزمجر «البيضة» :

ــ انزلوا هذا الخنزير .

ــ هل تتصورون مدى الفظاعة ؟ ما عساى افعل الآن ؟ والمصيبة اننى استعرت القميص ! ــ أنّ المسافر ذو البطاقة وهو يمسح القميص بمنديله .

نصحنا صوت من المقصورة المجاورة :

ــ كموا فمه بمنشفة .

ــ ماذا حدث يا رفاق ؟ هل انفجر برميل النبيذ ؟ ــ تناهى صوت الاشقر خافتا . واطل من الرف العلوى ، من بين الغبش ، وجه وجل شاحب كالطباشير .

ــ ولسّه تضحك علينا يا سافل ؟ ! «انفجر البرميل» ! هل فى برميلك عصيدة ؟

ــ والله سوف اؤدبك . . . ــ وانقض امباكو الذى استبد به



الغيظ على الاشقر الذى كان بين الحياة والموت من خوفه . وبصعوبة حالوا بين امباكو والاشقر .

. . . بعد نصف ساعة استؤنفت الانخاب . وسرعان ما انفض الجمع ولم يبق حول المائدة الا انا وامباكو . سألته :

— اريد ، يا عم امباكو ، ان تعرفنى عن كثب .

— من انت ؟

— انا زوريكيلا فاشالوميدزه .

— عاشت الاسماء . اسم العائلة يدل انها من الاخيار ، ثم انك ما تفوت كأسا . ابن من انت ؟

— انا ابن جدتى وايلاريون وايليكو .

فغر امباكو فاه ، واخيرا سأل :

— وهل من مزيد ؟

— لا مزيد . ثلاثة فقط . اريد ان اغنى .

— ولذا انت ذاهب الى تبليسى ؟

— كلا ، انا ذاهب الى تبليسى للدراسة ، اذ ان لدىّ شهادة تخرج . هل لديك شهادة تخرج ؟ كلا ! بل انك لا تعلم ما هى شهادة التخرج . العلم نور ، — قلت ذلك وافرغت الكأس .

— اسمع منى يا ولد . . . يبدو انك صبى ابن حلال . . . سامع ؟ كف عن الضحك كالمعتوه ! اسمع . انا امباكو غورديلادزه ، وذاهب للدراسة ايضا . قد تقول : «لما شاب راح للكتّاب» وستكون على خطأ . العلم من المهد الى اللحد . اذكر عندما خلع القيصر نيكولاى من عرشه . . . اصمد ، يا ولد ، لا تقع ! . . اقول : عندما خلع نيكولاى كنت مثلك غِرّا . وكنت اعتقد ان القيصر يجلس على تخت كبير وجاء العمال والفلاحون وجروه من قدميه فاسقطوه عن التخت . . . هكذا اعتقدت آنذاك . هل تعرف لماذا فكرت هكذا ؟ لاننى كنت جاهلا ، هذا هو السبب ! عوضى فى ابنائى ، فهم

متعلمون . فاهم ؟ يحيا العلم !

— يحيا العم ايلاريون !

— اسمى امباكو !

— كلا ، ايليكو !

— امباكو !

— اقول لك ايليكو ، ولكن متى صارت لك عين ثانية ؟

— يا ولدى اسمى امباكو ، سامع ؟

— يا عم ايلاريون ، هات اقبلك !

— ماشى الحال ، ايلاريون يعنى ايلاريون . ولكن اذا صحوت ان شاء الله ، فسمّنى امباكو !

— الا تريد ان تقبلنى ؟

— اما غريب اطوار ! ولماذا لا اقبل فتى طيبا ؟

مسح امباكو شفتيه بكمه وقبلنى قبلة رنانة . اسندت رأسى الى كتف ايليكو واسبلت جفونى .

— أتذكر يا ايلاريون كيف اصبت كلبى مرادا ؟

— اذكر ، يا ولدى ، وكيف لا اذكر !

— وهل تذكر كلماتك التى قلتها آنذاك ؟

— طيب ، ذكرنى .

— هدأت خاطرى ، وقلت لا تبك يا زوريكيلا .

— اجل ، اجل ، اذكر .

— وانت ؟ انت بكيت ايضا !

— بكيت ؟ اجل ، طبعا بكيت .

— وهل تذكر التبغ ؟ التبغ الذى ضيفنا به ايليكو ؟

— طبعا ، كان ممتازا !

— لا ، انا اسأل عن التبغ المفلفل .

— اذكر المفلفل ايضا .

ــ انت ، ولا شك ، تعرف انك وايليكو اعز الناس على قلبي في الدنيا !

ــ اعرف ، اعرف يا ولدى . . . نم الآن !

ــ جدتى نائمة الآن . . . كلا ، انها يقظة . . تفكر فيّ . .

ــ تفكر ، طبعا ، فهي تحبك . .

القطار يندفع في سيره والعربات تنساب متأرجحة ، تتماوج الارض وكل ما حولي . . . اخشى ان يخرج القطار عن السكة . . . ولكن ليس ثمة ما اخشاه ، فانا انام على صدر ايلاريون . . . يده المخشوشنة المعروقة تمسح بحنان جبهتى المبتلة . . . العجلات تدق على السكة . . . القطار يندفع ويصفر .

ــ اووو ، زوريكيلا ، الى اين انت ذاهب ، اووو !

ــ قادم ، قادم انا يا جدة ! ــ اصرخ واعدو عبر ضباب خفيف .

ثمة من يهدهدنى :

ــ نم يا ولدى . . .

الملاذ

ها انى طالب في كلية الاقتصاد . ما برحت كل ممتلكاتى تتألف من سروال و«دَين» ، هو امتحان الاقتصاد السياسى . طيلة فترة دراستى في الصف الاول كانت ربة البيت التى استأجر عندها غرفة تستلم منحتى بانتظام ، دون ان تفوت فرصة تقريعى كل مرة :

ــ كان بوسعك ان تحصل على علامات شرف ، يا تنبل !

وها ان ربة البيت قد حرمت من المنحة بسبب «الدين»* ولذا

---

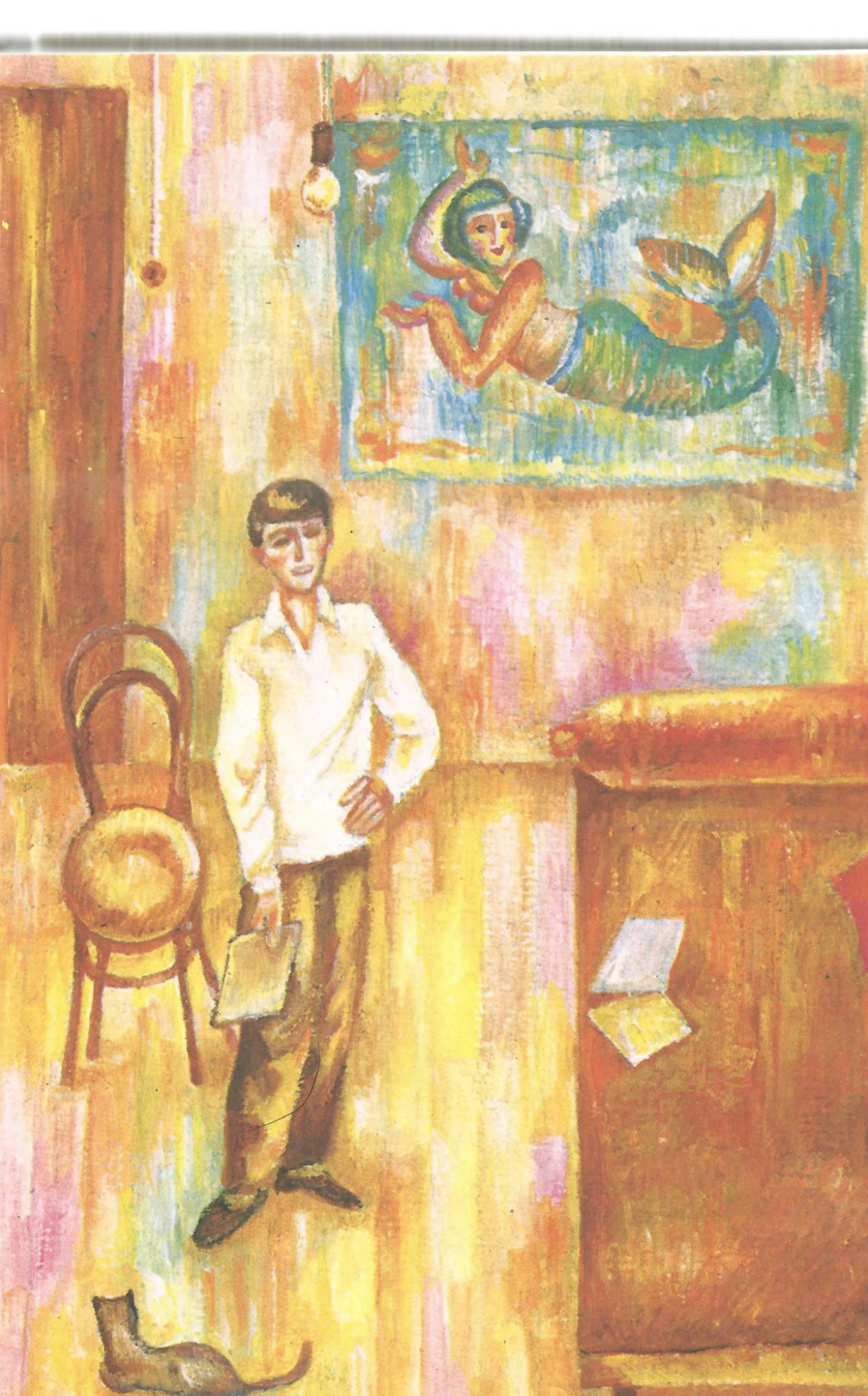
* يحصل الطالب المتفوق على منحة اضافية ، بينما تحجب المنحة الاصلية عن المُكمل . **المترجم** .

فاننا نحضر للاقتصاد السياسى سوية . وهى تسألنى كل صباح :
— بَشرٍّ . متى تؤدى الامتحان ؟
— حلّى عنى ، لخاطر الله ، يا خالة مارتا ، — ارد عليها حانقا . — ما لك تلحين وكأنك جدتى .
فتصرخ فى وجهى :
— قصف الله اعماركم ، انت وجدتك . تتصور انا بحاجة اليكما ؟ . . هل تعتزم ان تدفع ما بذمتك ؟ ام انك نسيت المختار ؟ حذرنى اليوم مرة اخرى ، وقال ان لديك ساكنا غير مسجل فى القيد ، ومع ذلك نسيت ان تشكرينى .
— طيب ، ولماذا لم تشكريه ؟ هل تبخلين بكلمة طيبة ؟
— لا تسخر يا احمق ! اقعد وذاكر دروسك . واذا لم تستعد المنحة خلال يومين فسأطردك من البيت .
— قد تريدين ان آخذ الدكتوراه فى يومين ؟ طز فى هذا البيت ! مصيدة فيران لا اكثر ولا اقل . . .
— مد رجلك على قدر لحافك . يعنى تريد غرفة مع حمام فيه ماء بارد وحار ؟
— بالمناسبة ، اعطنى كوب شاى ساخن .
— اعطيك سمّ !
— لا تنسى ان تضعى فيه السكر .
خرجت ربة البيت ، ولبثت اتطلع بأسى الى دفاتر المحاضرات . تسكن الخالة مارتا فى بيت قمىء من غرفتين فى نهاية شارع بازاريس—خيفى . انها امرأة دميمة مشاكسة ، إلاّ انها طيبة القلب . لديها نزيل واحد ، هو انا ، بليّة ولست نزيلا . اشغل غرفة يوجد فيها ، عداى ، تخت وكرسى وصوفيا وامرأة مطرزة لها ذيل سمكة معلقة على الحائط . لصوفيا عينان خضراوان . بعد ان اغادر صباحا تعمد صوفيا الى تنظيف وتنشيف صحنى الوحيد بعناية ، ثم تمضى

يومها كله جالسة على افريز النافذة تتطلع الى شجرة التوت القديمة والعصافير التى تتواثب فوقها . اتضح ان هذه الشجرة بعمر الخالة مارتا ، بيد ان احدا لم ير ثمارها . صوفيا خبيثة للغاية ونرجسية . فهى تظل فى الاماسى تنتظر بصبر حتى اضطجع وادفىء الفراش . وبعد ذلك فحسب تهبط من الافريز وتندس بحذر تحت الغطاء الى جنبى . انا اكن لصوفيا حبا جما ، كلا ليس حبا بل مجرد اننى الفتها ، ولعل هذا هو الحب . لا اعرف ، كما لا تعرف ربة البيت ، من اين جاءتنا صوفيا . كان ذلك ذات مساء . دخلت غرفتى صامتة ورفعت ذيلها ثم حكت جنبها برجل التخت ، ونظرت اليّ وكأنها تسأل : «هل اعجبك ؟» كانت تشبه ابنة الجيران ، لذا اعجبتنى . ندهتها : «صوفيا ، صوفيا !» . ادارت لى ظهرها واتجهت صوب الباب متمهلة . فرجوتها : «الى اين ، يا صوفيا ، امكثى ، رجاء !» . . . وظلت صوفيا . منذ ذلك الحين ونحن نسكن سوية .

تحس صوفيا ان امورى ليست على ما يرام وتسعى بكل جهدها لتطييب خاطرى . للمرة العاشرة اعيد قراءة المحاضرات ثم اضع الدفتر تحت الوسادة يائسا . مساء امس قالت لى الخالة مارتا اننى كافر زنديق وهذا سبب مصائبى . اجبتها ان الرب حرمنى الطمأنينة وحرمها المنحة . قالت الخالة مارتا ان الرب لن يغفر لى هذا الالحاد ، وامرتنى ان اجثو على ركبتى فورا ، واطلب من سبحانه الغفران ، والا فانه سيحرمنى هبة الكلام . فقلت ان العلي القدير قد حرمنى هذه الهبة بالفعل ، اذ دخلت قاعة الامتحان مرتين ، وفى كل مرة لم اقو على ان انطق كلمة واحدة ! حينذاك رسمت الخالة مارتا علامة الصليب بهلع ، ثم بصقت وصفقت الباب وهى تخرج . .

. . . صباح هذا اليوم اذهب مجددا لاداء الامتحان . ومن باب الحيطة قررت اتباع نصيحة الخالة مارتا ، فجثوت على ركبتى



امام التخت ورفعت يدى الى السقف بالدعاء :

— يا رب ، ابتهل اليك ، قبل كل شيء ، ان تمنع هذا السقف المهترئ من السقوط على رأسى . . . ثم ، يا قادر على كل شيء قدير ، اقول اننى سوف أؤدى امتحان الاقتصاد السياسى فى العاشرة صباحا . هل تعرف معنى السلعة* ؟ البقرة ، والخنزير والماعز ليست بضاعة كما كنت اتصور فى البدء . بيد ان البقرة والخنزير والماعز يمكن ، من جهة اخرى ، ان تصبح سلعة . الا تفهم ؟ انا ايضا لا افهم . لذا اتضرع اليك : خذ بيدى واعنّى على اداء هذه المادة ! احفظ ماء وجهى امام ايليكو وايلاريون والجدة ! فقط لا تكرر انك ، وانت فى سنى ، كنت من الاوائل ! دعك عن هذا ! ايلاريون يقول الشيء ذاته . انتم الطاعنون فى السن لا شاغل لكم الا قراءة المواعظ للشباب ! . . اذا كنت ثاقب الذهن كما يقال ، فانس ما حصل يوم امس واعنّى فى الامتحان ! ولسوف يكون ذلك تصرفا ربانيا ! فعلا ، هل سيثقل كاهلك ان تمنّ علىّ بعلامة نجاح بسيطة ؟ طيب ، سمعتنى ، يا رب ؟

وتعالت بغتة صرخة عالية :

— هَىْ ! من انت ؟

تجمد الدم فى عروقى وتيبس حلقى من فرط الخوف . تكرر السؤال : — اسألك انت !

— انا . . . انا . . انا زوريكو . . .

— فاشالوميدزه ؟

— اجل ، فاشالوميدزه .

— الا تخجل من ان تسكن دون تسجيل الاقامة ؟

— نعم ؟

* تلاعب بالالفاظ : فان كلمة جورجية واحدة تؤدى معنيين : «سلعة» و«ماشية» . **الناشر** .

— اتبعني فورا الى قسم الشرطة ! سوف اريك هناك الـ«نعم» .
سرى الدم في اوصالي مجددا .
— ومن تكون انت ؟ — سألت وانا التفت .
كان يقف قبالتي رجل طويل نحيف يعتمر قبعة أكل عليها الدهر وشرب ، ويتأبط حقيبة بالية ، انه المختار دومينتي .
— العم دومينتي — قلت مكشرا .
فكشر دومينتي بدوره ورد :
— ابليس عمك .
قلت مصححا :
— الرفيق دومينتي .
— انا لست برفيق لك ! — قاطعني دومينتي ، فانفجرت :
— اذن لا فرق لدي مَنْ تكون . دعني في حالي فانا في عجلة ، ويجب ان اؤدي الامتحان .
— بلا ثرثرة ! البس بسرعة واتبعني — زمجر دومينتي ودس يده في جيبه .
فقلت بنبرة حازمة :
— اخرج يدك من جيبك ، ثم خاطبني .
دهش دومينتي حتى انه اخذ يئن :
— امّا انت . . اما كيف . . كيف تجرؤ ، يا ابن البارحة ؟
— قلت لك بلغة البشر : دعني لحالي ، فسوف اؤدي اليوم امتحانا ، وغدا سأذهب بنفسي الى الشرطة .
— كلا . ستذهب اليوم ، والا فسوف يقتادونك غدا .
ادركت ان دومينتي لم يكن يمزح . وفهمت صوفيا انني وقعت في مأزق . فاخذت تموء كالمستميتة . قال دومينتي :
— سد حلقها والا رميتها من النافذة .

خافت صوفيا والتزمت الصمت . ارتديت ملابسي ، وبعد خمس دقائق كنا نسير هابطين في شارع فازاريس–خيفي . قلت له :

— قلبك لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ! انسان يستعد لاداء امتحان وانت تسوقه الى قسم الشرطة .

— انا لا اعرف الشفقة ؟ — تساءل ممتعضا .

— انت طبعا ، ومن غيرك ؟

— وهل تعرف انت الشفقة ؟ ها انت تسكن دون اقامة ولا تفكر في انني سوف أكون المحاسب عن ذلك . سوف يقولون ان دومينتي يتستر على من لا اقامة له ، وان دومينتي يأخذ . . . وهل اعطيتني شيئا ؟ انطق ، تكلم ، هل اعطيتني كوبيكا واحدا ؟

— كلا !

— شايف ! ويقولون : دومينتي مرتش ، دومينتي حرامي ، دومينتي نصاب . . . ولكن من هو الحرامي والافاق ؟

— من ؟

سأل دومينتي بغتة :

— كم تدفع ايجارا للغرفة ؟

— ٢٥٠ روبلا في الشهر .

— ومن اين لك هذه النقود ؟

— جدتي ترسلها .

— ومن اين تحصل عليها جدتك ؟

— تستدين من ايلاريون .

— واين يحصلها ايلاريون ؟

— اذا كان الحاصل جيدا فهو يبيع النبيذ ، وبخلافه يستدين من ايليكو .

— ومن اين يحصلها ايليكو ؟

— حلّ عنى ! وانت من يعطيك النقود ؟
— لا احد . ولذا اقتادك الى الشرطة .
— بلا لف ودوران : ماذا تريد منى ؟
— انا ؟ لا شيء . سوف اقتادك الى القسم واسلمك الى الحكومة حسب القواعد المتبعة واقول : ها هو المواطن الفلانى . ما هى مهنتك ؟
— لا مهنة لدي حتى الآن .
— عظيم ! . . هذا مواطن لا يزاول مهنة معينة ، ويسكن دون اقامة وقد رسب في الامتحان . . . فى اى امتحان اخفقت ؟
— في الاقتصاد السياسى . . .
— من سوء حظك ... مواطن امى سياسيا ، ويؤمن بالخرافات . رائع ! . . سوف اسلمك للحكومة و . . . هل كنت نزيل السجون ؟
— كلا . .
— اذن اشفق بروحك ! يمكن ان اضبّط لك الاقامة بكل بساطة ولن يشم اى كلب رائحة ، — قال دومينتي وتوقف قرب مقصف . — مفهوم ؟
— كلا . .
— اما غبى ! عمّ يمكن ان نتحدث ، اذا كنت لا تفهم حتى معنى السكن والاقامة ! . . . ما لك تبحلق فيّ ؟ لندخل الى «ريغوليتو» ، ونأكل لقمة . .

الحق يقال ، ان بطنى كانت خاوية تماما . رفعت الى دومينتى نظرات مليئة بالعرفان وابتسمت برقة وتبعته الى القبو . جلسنا الى مائدة فى ركن المقصف . عكف دومينتى المفرش لكى لا تتسخ ثيابه وابعد الصحن الذى وضع فيه مبيد الذباب اللزج ، ودس الحقيبة بين ظهره ومسند الكرسى ، ثم مسح العرق عن جبهته وسأل بحنان :
— ماذا تأكل ؟



فاجبت دون ابطاء : — كل شيء .
— وماذا تشرب ؟
— على حسابك اشرب حتى النفط ، — قلت مازحا ، فابتسم دومينتى ودق على الطاولة بقبضته :
— ريغوليتو !
خرج من وراء البار نادل اعرج وتسمر عند طاولتنا على ساقه الوحيدة :
— امرك !
— مرحبا ، ريغوليتو . تعرف بابن الحلال هذا ، من الشلّة ، ويعرف قيمة الزاد والشراب ، هو اليوم سيد المائدة .
نهضت وانحنيت باحترام ، ثم شددت على يد ريغوليتو بقوة كما هى العادة فى تبليسى ، وقلت اسمى .
— اسد ! يبدو شابا قويا ، — قال ريغوليتو وهو يتفحصنى بنظرة يشوبها الاسف ، — اؤمروا !
— اثنين بيرة ، وصحنين جبن ، وصحنين خضرة . ولا تنس الفجل ! رغيفين خبز وقنينة عرق ! عندك كافيار ؟
ابتسم ريغوليتو بغباء . سرعان ما غدت المائدة عامرة .
ملأ دومينتى قدحين وقرع كأسى وشرب بصمت . شربنا الكأس الثانية نخب التعارف . ثم رفع دومينتى نخبا :
— انا ، دومينتى خاتشابوريدزه انسان صغير . ولكن نابليون ايضا كان صغيرا ، بل وابى اصغر منه ، ولكنه كان يهدم جبالا ، انا مختار المحلة ، وقلبى رؤوف . انا من يقرر ما اذا كان الانسان سيسكن بيتا ام ينام فى الشارع . هل حصل لك ان نمت فى الشارع ؟
رددت منزعجا — وهل انا لقيط ؟
— طيب اذا اردت ، فان بامكانى ان القى بك الى الشارع ،

لانك بلا اقامة !

— اذن مد يدك وسجلنى وانتهى الامر !

— انا امد يدى ، لكن انت تعطى ؟

— نعم ؟ — لم افهم قوله .

— طيب ، اشرب ! — قال دومينتى وملأ الكأسين .

شربنا . لاحظت ان عينى دومينتى اخذتا تزوران ، ولـكنه واصل كلامه :

— هل تعرف معنى البيت ؟

— هل هذا سؤال ؟ البيت هو البيت .

— ومع ذلك ؟

— البيت . . . غرف مسقوفة بالقرميد او بالتبن او بالواح خشبية .

قهقه دومينتى وتناول الكأس مرة اخرى :

— امّا ابله ! البيت قبل كل شيء يعنى العائلة ! عندك عائلة ؟

— كلا !

— اذن فانت احمق ، يا اخ ! عندما كنت فى عمرك ، لعلمك ، كنت متزوجا للمرة الثانية . وانا اعيش الآن مع زوجتى الاولى . عمّ كنت اتحدث ؟ نعم ! العائلة والبيت صنوان لا ينفصلان . اذا لم يكن لديك بيت فانت عاجز عن الزواج ، واذا لم تتزوج فليس بوسعك ان تسكن زوجة فى البيت ! هل تعرف كيف قام البيت ؟

— اعرف .

— قل .

— من طابوق والواح واحجار وقرميد . . .

— اسكت يا خايب . . كان الانسان يعيش فوق الاشجار قبل ان يصنع الطابوق . . .

— في الكهوف .
— ثمة من سكن الكهوف وثمة من عاش فوق الاشجار . . . ثم سئم الانسان الحياة على الاشجار وهبط الى الارض . هل تعرف ماذا حصل له بعدئذ ؟
— راح وجاء ، ثم عاد وارتقى الشجرة .
— كلا ، تمشى قليلا ثم شعر بالبرد . وماذا فعل ؟
— ارتدى المعطف وتدفأ !
— ابله ! هل كانت هناك معاطف آنذاك ؟ اخذ احجارا واخرج منها شررا واوقد نارا وتدفأ . ولكنك تعرف غدر الطبيعة وتقلباتها . هبت فجأة ريح باردة من الشرق ، فشيد الانسان جدارا من ناحية الشرق ليقي النار من الريح . هبت ريح من الغرب ، فشيد الانسان جدارا آخر من الغرب . ثم هبت ، زمجرت ريح عاتية من الشمال الى الجنوب . ماذا تبقى للانسان المسكين ان يفعل ؟ شيد جدارين آخرين من ناحية الشمال ومن ناحية الجنوب . كان ذلك في الخريف . هطل مطر ، بارد ومدرار . ادرك الانسان ان اموره زفت ، والنار ستخمد . ما العمل ؟ تفتق ذهنه انذاك عن اقامة سقف من التبن .
— وبعدين ؟
— بعدين المت به مصيبة جديدة : النار مشتعلة والدخان يأكل العيون ، مسيلا الدموع . ظل يضرب اخماسا باسداس : ما العمل ؟ معقول ان يهدم الجدران ؟ ولكنه كان ، رغم كل شيء ، انسانا ، ونحن نمتاز عن الحيوانات بكوننا نستطيع التفكير ونحسن النطق .
— انت الحيوان ، سيرابيونا انت — قلت وامسكت بالقنينة .
— ضع القنينة ، يا اهبل ! . . . اين قطعت حديثي ؟
— . . . كان الانسان يختنق في الدخان !
— كاد يختنق ، المسكين . ثم عنّت له فكرة ، ففتح

ثقبا في السقف خرج منه الدخان ، فتنفس الصعداء . . ظل جالسا عند النار يتدفأ . اراد ان يعرف ما اذا كان المطر قد توقف . كيف يعرف ؟

— بكل بساطة يمد يده .

— من اين ؟

— من النافذة طبعا .

— ارعن ! وهل كانت هناك نافذة ؟ لذا قرر ان يفتح نافذة في الجدار . . ثم كان عليه ان يخرج . لحاجة تعرفها . . . ريغوليتو ، نصف قنينة عرق ! — تفوق دومينتي وواصل : — اشتق بابا ، فماذا كانت النتيجة . . . اجب !

— ثغرة !

— اما ابله ! كانت النتيجة بيتا ، فاهم ، بيتا !

— لا أعرف ، ولكن جدي لم يكن يبني البيت هكذا . . .

— اما جدي فلم يكن يبني اطلاقا ، فقد شغل بيوت الآخرين ، ولكن ليس هذا بيت القصيد . . . ثم جاء الانسان بالكلب من الغابة واوكل اليه حراسة البيت وخرج . ثم جاء بزوجة واوكل اليها ادارة شؤون البيت ، وخرج ثانية . عاد حاملا صيده . . . اخذوا يأكلون ويكيلون الثناء . . . ثم صار لهم ابناء واحفاد واحفاد احفاد . . . قامت قرية ، ثم ناحية ، ثم مدينة ، واخيرا عاصمة . تبليسي عاصمة جورجيا . . . فهمت الآن كيف ان مدينتنا تبليسي شيدت بشق الانفس ؟ وهل اسهمت انت في ذلك ؟ كلا ! فكيف تجرؤ بعد هذا على ان تسكن في تبليسي دون اقامة ! ولكن لا تبتئس . . . انت تعجبني . . ما اسمك ؟

— زوريكو .

— زوريكو . . . سوف يكون لي مع مارتا حديث آخر ، اما انت فلن اخذ منك اكثر من مائتي روبل ، لا اكثر . . . ولكن

حاذر من ان تثرثر ! ما اسمك ؟

— زوريكو .

— اى ، نعم . صمت القبور ، فاهم ، زوريكو ؟ — غمز دومينتى بخبث ، وظل جفنه مسبلا . آنذاك غمز بعينه الثانية ولم يتمكن من فتح جفنه ايضا . استغرق فى النوم على هذه الحال .

اترعت الكأس بالعرق وناديت ريغوليتو ، فهرع توا :

— امرك !

— اشرب ! — ومددت له الكأس . وضع ريغوليتو الكأس على الطاولة بحذر واجاب :

— ما نشرب فى الشغل .

عانقته وسألت :

— هل تعرف ما هو الاقتصاد السياسى ؟

— اعرف السياسة واعرف الاقتصاد !

— اذن خبرنى ، ما هى السلعة ؟

— اية سلعة ، غير المقيدة ؟

— كلا ، المقيّدة .

— كل ما معروض فى الواجهة هو سلعة . وثمة سلع فى المستودع . .

— صح ! وهل ترى هذا المسجّى ؟ — واشرت الى دومينتى .

— نائم ، — قال ريغوليتو وهو يبتسم ساخرا .

— انه سيرابيونا .

— ليس سيرابيونا بل دومينتى .

— اقول لك انه سيرابيونا ، — ثم افرغت الكأس دفعة واحدة فشعرت ، بغتة ، ان كل ما حولى اخذ يدور . الطاولة وانا وريغوليتو اصبحنا على الجدار . خطر لى : «سوف نقع الآن» ! . اغمضت عينى . . . لما فتحتهما كان كل شيء فى نصابه .

سألت ريغوليتو :
— الا تعرفني ؟ انا زوريكيلا ، فاشالوميدزه . . . وهل تعرف ماهو الاقتصاد السياسى ؟
— عجيب ، ما قلت لك اعرف ! هل اعطيك الحساب ؟
— هات . .
انصرف ريغوليتو ثم عاد وهو يحمل حاسبة خشبية كبيرة وبدأ يعد على اقراصها :
— اثنين كباب — اربعون روبلا ، رغيفين خبز ستة روبلات ، عرق وخضرة وجبن . . . باختصار ، ثلاثمائة روبل .
— ثلاثمائة روبل كثير ، تكفى خمسون .
— نعم ، نعم ؟!
— اقول ، اعطنى خمسين روبلا ، تكفى للتاكسى . . ما عندى نفس ارجع للبيت مشيا . . .
— راح افرجك الخمسين روبل . . . — والتمع نصل سكين طولها ذراع فى يد ريغوليتو ، فسألته :
— يعنى ، نويت على قتلى ؟
فهسّ قائلا : — خل الفلوس امامى .
— فتشنى ، واذا عثرت على روبل واحد ، اخسر لك قنينتى عرق .
امسك ريغوليتو بتلابيبى وهو صامت متجهم ، فولولت :
— يا عم دومينتى ! رفيق دومينتى ! دومينتى ! انهض يا لعين ، سوف نذبح .
فتح دومينتى عينيه وتطلع الىّ بنظرات ساهمة ثم اشاح بيده ونقل رأسه من صحن الى اخر .
— فك عنى ، — قلت متوسلا . — اتركه رهنا لديك . الا يكفيك ؟

— لا يكفي . هات الفلوس ، وخل المزاح لبعدين :
— طيب ، حلّ عنى .
ارخى ريغوليتو اصابعه ، فاختطفت حقيبة دومينتي وفتحتها وهززتها فوق الطاولة . كانت الحقيبة خاوية . عند ذاك قلبت جيوب سترته فوجدت فيها اربع وريقات من فئة ثلاثين روبلا .
— مائة وعشرون روبلا . هات مائة وثمانين روبلا .
تحولت الى جيوب السروال فوجدت فيها مائة وخمسين روبلا . قال ريغوليتو :
— هات ثلاثين روبلا اخرى .
حاولت ان ابدى سخطى فقلت :
— يا لك من انسان بلا قلب ! اليس لديك اطفال ؟
— كلا !
— اذن استقطع هذه الثلاثين روبلا كضريبة عقم ! — قلت ذلك وقصدت الباب فصرخ ريغوليتو :
— ارفع هذه الجيفة من امام عينى ، والا سأكون فى حِلّ من دمه .
ادركت ان بقاء دومينتي هنا محفوف بالخطر . وضعته على كتفي وخرجت مترنحا من حانة ريغوليتو .
قضينا تلك الليلة انا ودومينتي وصوفيا سوية ، فى فراش واحد . نمنا نوما عميقا لا يكدره شيء ، دون اية اقامة ، ولم يشعر اى منا بالخجل .

بعد طول غياب

هذه هى السنة الثالثة التى امضيها فى تبليسى . فى القرية يسموننى «نصاب من المدينة» وفى المدينة : «فلاح» . ما برحت الخالة مارتا تعتبرنى مدينا سرمديا ، وانا فى نظر مختار المحلة دومينتي

محتال ، وبينما يصفنى الاساتذة بالطير الذى لا يحط . وظللت زوريكيلا كالسابق ، ثرثارا ، ارعن ، زنديقا لدى جدتى وايليكو وايلاريون ، مهما حصلت من شهادات . بالنسبة لصوفيا الامر سيان ، فهى لا تكترث بماضى ولا بحاضرى ولا بمستقبلى . انها تتدفأ فى سريرى وتأكل بقايا غدائى . وفى ذلك الكفاية لسعادة القطط . ما زالت «الديون» ، تلاحقنى كظلى ، ومنحتى المالية مركونة فى زاوية ما بخزانات قسم المحاسبة بالجامعة تنتظر بصبر فارغ ، متى ترى ، اخيرا ، صاحبها . . .

. . . صقيع . الثلج ينهمر والريح تعوى .

انا جالس فى غرفة الخالة مارتا ، هنا اكثر دفئا . على الطاولة سماور يشبه الكرش الممتلئ . ونحن نحتسى الشاى الساخن متمهلين ، ونتجاذب اطراف الحديث . تقول الخالة مارتا بحسرة :

— مسكينة جدتك . لو كنت ، يا تنبل ، تتقاضى المنحة لخففت من عبئها .

— خالة مارتا ، اليوم عيد ميلادى ، فلا تفسديه علىّ لخاطر الله .

— منحوس ذلك اليوم الذى ولدت فيه ، يا عديم الحياء .

— شكرا ! اتمنى لك الشيء نفسه ! صحتك خالة مارتا !

وقرعت قدح الشاى بقدح ربة البيت .

— ما تصير آدمى ! — دارت الخالة مارتا ابتسامة ودست خفية فى قدحى قطعة من سكرها .

الشتاء بارد فى تبيلسى . يبهجنى ان اجلس فى غرفة الخالة مارتا ، التى تشرع عادة ، بعد قدح الشاى ، فى سرد قصص متنوعة مشوبة بمسحة من الحزن ، وهى دائما تقصها بضمير الغائب ، ولكننى اعرف ان كل تلك القصص من حياتها هى . انا مغرم بالاصغاء الى القصص الحزينة كما ان الخالة مارتا تستمتع بثرثرتى . تستغرق

في الضحك ، وتقول بعد كل فترة صمت : «لعنة الله عليك» وتمسح دموعها . انا اليوم الراوى ، بمناسبة عيد ميلادى . كفت الخالة مارتا عن شرب الشاى واصغت بانتباه . بدأت متسائلا :

— هل تعرفين صاحبي ايليكو ؟

— طبعا ! كم مرة حدثتني عن هذا الاعور .

— اذن اسمعي . . . ثمة شجرة كرز سامقة محاذية للسياج داخل حديقة ايليكو . وقد اشتهرت هذه الشجرة في القرية لانها مطعمة بكرز من اربعة اصناف ، لذا فانها تؤتي ثمارها طوال فصل الصيف . ويعتز ايليكو بشجرته الاعجوبة ويصونها كما يصون عينه الواحدة . وليس هناك من يجرؤ على ارتقاء الشجرة في وضح النهار ، اما في الليل فان ايليكو ينام على الشرفة محتضنا بندقيته العتيقة المحشوة بالملح .

ذات مساء رحنا ، انا وايلاريون ، الى الطاحونة . لم نلحظ كيف مر الوقت ونحن في انتظار دورنا عدنا الى البيت قبيل الفجر . توقف ايلاريون بحذاء بيت ايليكو .

— لنأخذ قسطا من الراحة ! — قال ايلاريون وقعد تحت شجرة الكرز .

لم اعارض .

جلسنا قليلا ، ودخنا لفافة . نهضت ، فسأل ايلاريون :

— انت في عجلة ؟

— ما معقول ان نظل هنا حتى الصباح . اريد ان انام !

— الا تريد كرزا ؟

— جدا . ولكن من اين الكرز ؟

— وهذا سؤال ؟ ها هو الكرز فوق رأسك .

— كلها إلا هذه ، شكرا . يبدو انك نسيت بندقية ايليكو .

— غبي ! تحطمت ماسورتها قبل ثلاثة ايام .

— وليكن . لن اصعد الشجرة باى حال .
— تقصد ، انا يجب ان اكدّ واشقى وانت تلتهم الكرز ؟
— ولم لا ؟
— يا للسافل ! ما عيب عليك ان ترغم الشيخ المسكين على صعود الشجرة ؟
— لا تتمسكن ، رجاء .
— طيب ، انقصف عمرك ، نصعد سوية .

اتفقنا ان الج الفناء واستطلع كل شيء واصعد الشجرة ، ثم اعطى اشارة لايلاريون .

كان كل شيء هادئا . زحفت حتى بلغت الشجرة ، واصخت السمع ثم نهضت بحذر واحتضنت جذع الشجرة بقوة و . . . التصقت به ! التصقت كما تلتصق الذبابة بالعجين ، بكلّ جسدى . كان جذع الشجرة ، بعلو قامة رجل ، مغطى بطبقة كثيفة من مزيج جهنمى تذكر رائحته بالروث والبعر والذرق ، وجيف اخرى . . . وجدت مشقة كبيرة فى نزع جسدى عن الشجرة . كان النتن ينبعث من ملابسى كلها . مكثت واقفا محتبس الأنفاس من الغيظ والجيفة ، افكر بطريقة للانتقام من ايلاريون لانه غرّر بى . ولم اجد مخرجا افضل ، فصعدت الشجرة واطلقت صفيرا طويلا خافتا . وفى لحظة واحدة قفز ظل ايلاريون عبر السياج واتجه الى الشجرة بحذر .

سمعت نخيرا عاليا وصوت ايلاريون المكتوم :

— هيه ، ما هذه الجيفة ؟

فاجبت بهمس :

— لا شيء ، لا شيء ، اصعد .

فرد ايلاريون ذراعيه واحتضن الشجرة و . . . تسمّر . ساد تحت الشجرة صمت كصمت الموتى ، ثم تناهى الي فحيح غاضب :

— زوريكيلا ، ما معنى هذا كله ؟

فرددت ساخرا :

— معنى هذا ان الله يقتص من الحرامى ! الا تعجبك الصلصة ؟

— زوريكيلا فاشالوميدزه : اذا اعتزمت قضاء حياتك كلها فوق هذه الشجرة ، فابق مطرحك . ولكن اذا ما هبطت يوما ما فسوف انحرك كما ينحر خروف العيد !

— عليك الذنب كله !

— اى ذنب ، يا ابن الكلاب ؟ اردت ان اطعمك كرزا يا سافل ، اما الروث فلدى منه ما يكفيك حتى يوم القيامة .

— حسبك . ساهبط الآن ، دعنى لحالى .

— زوريكيلا ، ارحم حالك ، ولا تخط خطوة واحدة .

— وما العمل ، برأيك ، اطير ؟

— راح يطلّع عقلى هذا السافل ! باى لسان تخاطبنى يا ابن البارحة ؟ كيف اعود الآن الى البيت ، هل فكرت فى ذلك ؟

— وكيف اعود انا ؟

— لن يترتب عليك ان تعود ! فاننى ساحمل جثتك ، سامع ، جثتك ، الى البيت ! — وهمّ ايلاريون ان يمسك بى ولكن نوبة سعال المت به . اخذ يتقيأ .

خففت نازلا من الشجرة كالقط .

— ايلاريون ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟ تشعر بألم ؟

ابعدنى عنه :

— ولّ عن وجهى ، لا تمسنى !

كان استغراقنا فى الشجار والجيفة التى حبست انفاسنا سببا فى اضعاف يقظتنا .

فبغتة لعلع شيء ما فى شرفة ايليكو ، ثم وقع وتدحرج وند عنه عويل يصم الآذان :

— اووو ! امسكوه ، امسكوه ! انتم طوقوه من الشمال وانتم

من اليمين ، والبقية من هناك . . . اووو !

هدمنا السياج بهجمة صاعقة واطلقنا سيقاننا للريح فوصلنا الى الطريق . دوت اطلاقة . غمغم ايلاريون وهو يضع كيس الدقيق على كتفه :

— يمكن يصيبنا ، هذا الابليس الاعور .

— لا تخف ، فان لدينا متسعا من الوقت للهرب ريثما يعيد حشو بندقيته !

— اشتر بعقلك حلاوة ! البندقية ذات ماسورتين !

— ومن اين تعرف انت ؟

— لقد اعرته بندقيتى !

— اذن ذنبك على جنبك .

— احمل الكيس يا احمق ، ولنهرب .

ما ان خطفت كيسى وهممت بالمضى فى اثر ايلاريون ، حتى دوت اطلاقة ثانية . اسقط ايلاريون حمله ، وتلوى على نحو غريب ، ثم تشبث بى باحدى يديه وامسك باليد الاخرى عجيزته واطلق صرخة هزت الزجاج فى نوافذ بيت ايليكو . سارعت فكممت فمه . اخذ ايلاريون يتلوى كالملسوع ، ويدور كالمصراع ، يقعى وينهض ، مؤديا حركات بهلوانية يحسده عليها اى لاعب فى السيرك . اضطررت الى ترك الكيسين وحملت الجريح على كتفى .

. . . اشرقت الخالة مارتا بالدموع من فرط الضحك . ثم خارت قواها فزحفت من الكرسى الى الكنبة وهى تشير لى بيديها : ان حسبك . ولكن لم يكن من اليسير ايقافى عن الكلام . . .

— . . . زوريكيلا ، عزيزى ، لا تتركنى ، لا تخزِ شيباتى ، — تضرع اليّ ايلاريون وهو يصر باسنانه من الالم — اوف ، يا ايليكو تشيغوغيدزه ، لا اوقعك الله فى يدى ! والله لاريك نجوم الضحى ! زوريكيلا ، انقذنى ، انى احتضر .

— والملح موجع ؟

— تضحك يا وغد ؟ تسخر ؟ اصطبر علي ، سوف انالكما انتما الاثنين ، يا سفلة ! آخ ، يا رب ، هل من نهاية لعذابي ؟ مصيبة !

— اصبر ، سيزول الورم قريبا . . .

— ومتى يحصل ذلك ؟ ادخل فيّ كيلو ملح ، هذا الابليس الاعور .

طرحت ايلاريون على بطنه برفق ، وانزلت سرواله وتأملت الجرح . فسأل وهو يئن :

— اموري زفت ؟ هل سأعيش حتى الصباح ؟

— ما هذا الكلام يا ايلاريون ؟ — قلت مطمئنا فابتهل ايلاريون :

— زوريكيلا ، ولدي ، انفخ على الجرح عسى ان يخف الالم .

امضيت ساعة كاملة جنب ايلاريون ، انفخ على الجرح واصب اللعنات على ايليكو . ثم جرجرت ايلاريون ، بعناء شديد ، الى البيت واضجعته على الكنبة ووضعت منشفة مبللة على الجرح المزرقّ . هرعت بعدئذ الى البيت واصطحبت جدتي ولم افارق صديقي الذي كان يئن ويتأوه .

قال ايلاريون متأوها وهو يعض الوسادة :

— شايفة ، اولغا ، شايفة ماذا عمل فيّ ؟ آخ يا ابليس الاعور ، ما تفلت من ايدي ، ما تفلت !

سألت جدتي :

— معقول انه لم يكن يدري من اصاب ؟

— اعوذ بالله ! لو عرفني لكان الداعي الآن مسجّى وفي صدره طلقة . .

— تستحق ! في المرة التالية تكون اعقل . . . وانت اين كان

فكرك ، يا ارعن ؟ — انقضت جدتي عليّ بغتة . — اخلع ملابسك فورا وارقد . . سوف اغسل ملابسكم الجائفة عسى ان تنشف حتى الصباح ، والا فابقيا في الفراش يا تنابلة !

لم ننم الا عند طلوع الفجر .

. . .كانت الشمس ساطعة حينما ظهرت قامة ايليكو في الطريق . لحظته من الشباك قبل الآخرين فحبست انفاسي . كان يحمل كيسي الدقيق ، وضع الاول قرب باب ايلاريون ورمى الثاني عبر سياجنا . ثم وضع يديه حول فمه كالبوق وصرخ :

— ايلاريون ! ايـ — لاريـ — ون ! الا تسمع ، يا عزيزي ؟

التزم ايلاريون صمت الموتى . فواصل ايليكو : — زوريكو ! زوريكيلا !

ردت جدتي :

— ما لك تصرخ يا ابليس الاعور ! لم يطرّ الفجر بعد وانت توقظ الصبي . ماذا تريد ؟

كان ايليكو يخاف جدتي ، كما لا يخاف شيئا في الدنيا ، لذا فانه خفف للتو من نبرته :

— لا شيء ، يا اولغا العزيزة ، اردت فقط ان اعرف ما اذا كان ايلاريون في البيت .

— وهل عُين زوريكيلا حارسا عليه ؟ رح انت عاين .

التزم ايليكو الصمت هنيهة ، وكأنه يستجمع قواه ، ثم اندفعت الكلمات من فمه كالسيل :

— اين انت ايها الشيطان ابو المناخير ؟ اطلع لنشوف ! لا تجرؤ ؟ سارق ، نشّال ! اما وجد شغلة ! يسرق كرز الناس ، عديم الحياء ! كيف نومة النهار ، ما تعجب ؟ اما تحتاج مزيدا من الملح ؟ لا ؟ اقول اخرج ، لنشوف ! عاجز عن المشي ؟ هذا جزاؤك يا حرامي ! هذا درس ، حتى تعرف كيف تسرق من الاشراف !

سألته جدتي :

— ما الحكاية ، ايليكو ، لماذا تصب عليه كل هذه اللعنات ؟

— لماذا ؟ تصوري ، انه اعتزم يوم امس ان يذوق كرزي . وحصل على ما يستحق من جزاء . هو وصديقه .

— اى صديق تقصد ؟

— ما ادري ، ليقل هو نفسه . — تهرب ايليكو من الجواب .

— مهلك ، قد يكون السارق شخصا غير ايلاريون ؟

— لو لم يكن هو لما غفر لي كل هذه الشتائم ! ثم لماذا غسل فجأة قميصه وسرواله ؟ ها قد نشرهما على الشرفة ! سامعين يا عالم ، عثر على كنز سليمان ، عنده طاقم ثان ! انهض ، اطلع يا بو مناخير ، خذ كيس الدقيق ، قبل ان اغير فكرى . حرامي !

مضى ايليكو مرفوع الرأس كالمنتصر . مشى بضع خطوات ثم التفت الى جدتي وسأل بصوت عال :

— بربك ، اين هذا الارعن زوريكيلا ؟ ام انه لا يسمعني ؟

— ماذا تريد من الصبى ؟ — ردت جدتي ومدت يدها الى العصا .

— ما اريد شيئا ، يا عزيزتي . . . اردت فقط ان اسأل هل اتعبه ان يحمل على ظهره صديقه ابا المناخير يوم امس ؟

لم اطق صبرا فخرجت الى الفناء وانا اقهقه .

ضحكت جدتي وضحك ايليكو . ايلاريون المسكين وحده لم يضحك : كان ما زال مستلقيا وهو يدفن انفه في الوسادة ويصرف باسنانه .

. . . فرغت من القصة . طبعت الخالة مارتا قبلة على جبيني وملأت قدحي بالشاى ، ثم فتحت الدولاب واخرجت علبة فيها مربى الجوز ووضعت في صحني جوزتين سوداوين .

ـــ قتلتني ، زوريكيلا ! الله يعطيك العافية ، ويعطى العافية لاحبابك ، لجدتك ولايليكو ولايلاريون .

اخذت الصحن وقلت :

ـــ سوف آكل المربى صباح غد ، خالة مارتا .

ـــ كل الآن ، وخذ هذه للصباح ، ـــ قالت الخالة مارتا بحنان وهى تمد يدها بعلبة المربى . . .

حصلت اليوم معجزة : استقبلتنى صوفيا فى الفراش . يبدو انها انتظرتنى طويلا ، ولكننى اطلت الجلوس لدى الخالة مارتا ، وبقيت عندها حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . تطلعت اليّ صوفيا بنصف اغماضة من عين واحدة ، ولما تيقنت من ان القادم انا ، عادت فاغلقت عينها . خلعت ملابسى بسرعة ورقدت الى جنبها . مرت بضع دقائق . صوفيا تلتزم الصمت . لم اطق صبرا فسألت :

ـــ نائمة ؟

لم ترد صوفيا . فتحت عينها ثانية ورمقتنى بنظرة ثم اغمضتها وواصلت هرهرتها . قلت :

ـــ صوفيا ، هذا غباء منك ! خبرينى رجاء ، ممّ زعلانة ؟ وحق رأسك كنت عند الخالة مارتا .

ارادت صوفيا ان تجيب بشيء ، بيد انها اخفقت : اذ انها كانت صوفيا ، وليست مرادا الذى كان يفهمنى من اول كلمة ، ويستطيع مخاطبتى بعينيه والتحدث فى اى موضوع . واصلت حديثى :

ـــ صوفيا ، اليوم عيد ميلادى . اتعرفين كم عمرى الآن ؟ ـــ لم تكن صوفيا تعرف ، او تهتم بالامر . بيد انها لمحت فى عيونى امارات السعادة وشاطرتنى اياها ، فالتفتت اليّ ومسحت ببوزها على خدى بحنان . عانقت صوفيا واستغرقنا فى النوم . حلمت الليلة طولها بجدتى وايليكو وايلاريون ، والغالب ان صوفيا حلمت بالفئران .

. . . طلعت الشمس حينما تعالى صوت عند سياجنا يصيح :

— يا صاحب البيت !
لم اكن صاحب البيت ، لذا لم ارد ، فتعالى الصوت ثانية :
— هيه ، يا صاحب البيت .
تناهى من غرفة الخالة مارتا ضجيج ، ثم صرت الباب وطرق سمعى صوت خفّى الخالة مارتا وهى تعبر الشرفة .
— من هناك ؟
— اين يسكن زوريكيلا فاشالوميدزه ؟
— من ؟
— الارعن زوريكيلا فاشالوميدزه !
سبحانك يا رب ! ايتها البتول القديسة ! يا خالة مارتا ! يا صوفيا ! اتعرفون ما هى المعجزة ؟ هل تعرفون كيف يتوقف وجيب القلب من فرط السعادة ؟ كلا ! اذن هل تعرفون من نطق باسمى الآن ؟ قد يكون هذا ساعى البريد يحمل برقية ليس إلا ؟ كلا ، انها ليست برقية ! ما الموضوع اذن ؟ رويدك ، يا زوريكيلا ! لا تخرج الى الفناء حافيا ، فتأخذ بردا ، اطل اولا من الباب ! كلا ، كلا ، اركض ، طر الى السياج ! اصرخ ، ابك ، اضحك ، غنّ يا زوريكيلا ! انه حبيبك ايلاريون يقف وسط الفناء وعلى كتفه خرج كبير وقد غطاه الثلج وازرق انفه من البرد .
ايلاريون يذكر يوم ميلاد زوريكيلا وكأنه جاء للدنيا بالامس فقط . فى ذلك اليوم اطلق الرصاصة الاخيرة من بندقيته ، اذ سرعان ما صودرت منه . ومهما حصل من شىء فان ايلاريون لن ينسى يوم ميلاد زوريكو ، اذ ليس ثمة فى الدنيا ما هو اعز على قلب ايلاريون من زوريكيلا .
وها هو الآن قد حل على حبيب قلبه ، وجاء له بجوارب صوفية ونبيذ وعرق وفواكه مجففة . وبنقود . سبعمائة روبل ، هى المكافأة التى حصل عليها لقاء شرانق دودة القز . ثم انه جاء له



برسالة من جدته . ترى ماذا تكتب الجدة لحفيدها ؟

«وليدى ! ها انك الآن عالم مشهور فى تبليسى كلها . وصلت رسالة من الجامعة الى مدرستك . يتساءلون : من هذا الذى ارسلتموه الينا ؟ من علمه ؟ كنت ادرى انك سوف تطير عقل الجميع هناك ، يا عزيز قلبى ! حاذر ، لا تثلم شرف قريتنا . ستبلغ العشرين من العمر يوم غد ، أليس كذلك ؟ سابحث لك فى العام القادم عن عروس يا ولدى . سنة الله ! ثم اننى يجب ان اهز مهد ابنك ، ثم اموت وتدفننى . ولكن اياك ان تبكى ! غن واضحك وانت تدفن جدتك العجوز ، يا روحى ! ليس ثمة ما آسف عليه ، فقد عمّرت طويلا ، وحسبى . . الامور فى القرية على ما يرام ، والحمد لله . نتجت بقرة ايليكو . ارخيبو الاعرج اخذه الله الى جواره ، ودفناه يوم الاحد الماضى . اخيرا زوجت ماتريونا ابنتها العانس السوداء كالفحم . انا وايليكو نبعث اليك ايلاريون ومعه بعض الهدايا البسيطة . ينبغى ان ترعاه كما يجب . يشكو المسكين من الم فى عينه . ارجوك الا تدخر وسعا ، واطلب من العلماء ان يشفوا عزيزنا ايلاريون . ها قد انتهيت يا ولدى . ماري والجيران جميعا يهدونك السلام . اقبلك بحرارة . جدتك اولغا» .

ظل زوريكو اليوم كله يقرأ الرسالة ويعيد قراءتها . قرأها فى اليوم الثاني والثالث . اراد ان يبكى ويضحك ويصرخ ويبكى . لتذهب تبليسى والدراسة والشهادة الى الجحيم ! سيجمع زوريكو حوائجه ويشترى بطاقة ويسافر الى القرية ، حيث تنتظره جدته و . . . ماري . سوف يسافر ! سيعانق جدته الطيبة العجوز ثم يذهب الى ماري ويسألها :

— بردانة ؟

— بردانة ، — ترد ماري .

ينزع زوريكو معطفه ويلقيه على كتفيها المرتعشتين ويحتضنها ويظلان يسيران حتى الصباح فوق الثلج الابيض العذرى . . .

اعور آخر

منذ شهر وايلاريون يقيم عندى . لا تعجبه غرفتى ولا مكتبتى :

—«الاحلام الضائعة» لبلزاك ، «كولا برونيون» لرومان رولان ، «ماتيو فالكونى» لبروسبير ميريميه ، «احدب نوتردام» لهيجو ، «كفاتشى كفاتشانتيرادزه» لجافاخيشفيلى ، «دافيد كوبرفيلد» لديكينز ، «قصائد مختارة» لغالاكتيون تابيدزه ، «رباعيات» لعمر الخيام ، «سرقة القمر» لغامساخورديا ، ايليا . . اكاكى . . فاجا . . كازبيغى ، تشونكادزه* . . .

— ظل يقلب الكتب على الرف ويتطلع الى وقد انزل نظارته على ارنبة انفه وهو يتساءل مستغربا :

— واين وضعت اغناتى نينوشفيلى ؟**

فقلت مهدئا :

— انهم ليسوا اسوأ من اغناتى .

— ليسوا اسوأ ؟ ومن منهم يمكن ان يضاهى اغناتى ؟

— الكل !

— من ، مثلا ؟ نصف هذه الاسماء اسمعها للمرة الاولى .

— اقرأ ، تعرف .

يرمقنى ايلاريون بنظرة هازئة ، ثم يتصفح الكتب باستخفاف . . .

. . . نجوب المدينة طوال النهار ولا ندع حانوتا الا دخلناه . يتملى ايلاريون بنظرات نهمة معطفا جلديا احمر مبطنا بالفراء . نمضى بعدئذ فترة طويلة فى حانوت للخردوات . يتفحص ايلاريون بعناية المبارد والمطارق والمناشير والاقفال المربوطة بالطاولة . ثم يستفسر عما اذا

---

* ايليا تشافتشافادزه واكاكى تسيريتيلى وفاشا بشافيلا والكسندر كازبيغى ودانيل تشونكادزه — من اعلام الادب الجورجى . **الناشر** .

** اغناتى نينوشفيلى — اديب كلاسيكى جورجى من مواطنى ايلاريون . **الناشر** .

كان هناك جهاز لرش الكروم ، ويغادر الحانوت قبل ان يتلقى جوابا .

امضينا اطول فترة فى حانوت «لوازم الصيد» . سأل ايلاريون البائع هامسا وهو ينحنى فوق الدكة :

— عندكم بارود ؟

— لا ! — رد البائع باقتضاب .

— خرطوش ؟

— لا .

— ايزالا ؟

رفع البائع صوته :

— ما هذه «الايزالا» المنحوسة ؟

فرفع ايلاريون صوته ايضا : — كبسول ، يا اغبر !

— اختر الفاظك ! — صرخ البائع . — من هو الاغبر ؟

— ما لك تصرخ كالدب الجريح ؟ *

امتقع وجه البائع :

— ماذا قلت ؟ طلعوا هذا المجنون ، والا جندلته فى مكانه .

اتخذت الامور مسارا خطيرا ، فسارعت الى اصطحاب ايلاريون خارج الحانوت ، ولكنه ظل يصرخ :

— كيف تقتلنى يا اغبر ؟ لا بارود عندك ولا خرطوش !

. . . نستقل الحافلة او الترولى باص احيانا . غالبا ما يبتاع ايلاريون التذاكر ، لاننى طالب وتكفينى مصائبى . فى البداية كان ايلاريون يفرح حين تأخذ الكمسارية منه النقود وتغمز وتدغدغ راحته دون ان تعطيه التذكرة ، معتقدا انها اعجبت به . ولكن عندما دغدغ راحته كمسارى ضخم الجثة لم يحتمل ايلاريون وعلا صراخه الحافلة :

* ثمة لفظة واحدة بالجورجية تؤدى معنى «الجريح» و «المخصى» . **الناشر** .

— لا تغمز لى ، الاحسن ان تعطينى تذكرة والا ضربتك كفا لن تنساه .

نرتاد السينما فى الاماسى . اخذت ايلاريون الى السيرك وحديقة الحيوانات ، آملا فى اثارة دهشته . بيد ان ايلاريون لا يعجبه فى تبليسى العجب ، و لا يستغرب الا من امور ثلاثة : اولها متى ادرس ، وثانيها ، لماذا شعر المهرج فى السيرك اخضر ، وثالثها كيف يمكن للناس ان يسكنوا المدينة دون نبيذ «ايزابيلا» ودون البصل الاخضر وخبز الذرة المحمص .

اذا لم يكن لدينا برنامج ثقافى فاننا نمضى الامسيات عند الخالة مارتا متحلقين حول السماور الاصفر ، يسرد ايلاريون مختلف القصص ونحتسى الشاى ، ونضحك . ايلاريون معجب بالخالة مارتا وهى تبادله الشعور ذاته ، وتقول ان له انف صقر حقيقيا .

ننام ، انا وايلاريون ، فى فراش واحد . قبيل النوم يقرأ ايلاريون او يناقش ما قرأ ، او يستفسر منى عن شؤون المدينة او يلقى علي موعظة . وينجز ذلك كله دفعة واحدة احيانا . صوفيا تضطجع بيننا وهى تصغى بانتباه لحوارنا وتموء باسترخاء لذيذ .

منذ اليوم الاول كره ايلاريون صوفيا ، وبادلته هى الشعور ذاته . حينما رأت صوفيا ايلاريون فى فراشى اول مرة قوّست ظهرها ورفعت ذنبها وزمجرت متأففة . ودونما مقدمات امسك ايلاريون بصوفيا من غاربها وفتح الشباك ، ورمى بها على الثلج . وقد اسقط فى يدى ، فلم احر شيئا . اوضحت لايلاريون ان صوفيا فرد من اسرتنا ولها كل ما يتمتع به الاخرون من حقوق . وعلى ذات المنوال بذلت قصارى جهدى لافهام صوفيا ان ايلاريون انسان عزيز علينا . تم التوصل الى هدنة مؤقتة ، بيد اننى لم افلح فى احلال سلام وطيد ، اذ يقول ايلاريون :

— اطردها الى جهنم ، ما نعرف طعم الراحة بسببها !

ـ وهل تزعجك بشيء ؟

ـ كيف لا وانا اخشى حتى التململ ليلا ، خوفا من ان ادوس على اللعينة .

ـ اذن لا تتململ !

ـ قد تقترح عليّ الا اتنفس ؟

ـ ما عساى ان افعل ؟

ـ لتنم تحت الكنبة !

ـ ستشعر بالبرد هناك .

ـ طيب ، اذن انا ارقد تحت الكنبة ولتنعم هى بلذة الفراش .

ـ على كيفك !

لا يرد ايلاريون بشيء ، بل يمسك القطة من ذيلها ويرميها على الارض . تموء صوفيا متشكية وتندس تحت الكنبة وتبقى تنتظر بصبر حتى يتعالى شخير ايلاريون لتعود ثانية الى الفراش وتتبوأ موقعها المشروع . بيد ان ايلاريون لا يغفو بسرعة .

. . . ايلاريون مريض . تؤلمه عينه اليسرى الما لا يطاق .

تعلُّق ايلاريون بى ، ومرضه جاءا به الى تبليسى . ايلاريون ليس جبانا ولكنه يخاف من زيارة الطبيب ، اما عن المستشفى فلا يطيق حتى ذكره ! والالم فى عينه يشتد ، ويغدو فظيعا لا يطاق اثناء الليل . ايلاريون المسكين مستعد لمناطحة الحائط ، وانا اسير فى اثره ، ابذل كل ما فى وسعى لتهدئته دون جدوى .

قررت اخيرا ان التسويف لم يعد ممكنا .

ارتدينا ملابسنا ولففنا قنينة عرق ورغيفا بجريدة ، وقصدنا واحدا من الاطباء غير المجازين فى الحى القديم بتبليسى ، بناء على توصية الخالة مارتا . حقا ان الطبيب كان اعور ولكنه ، كما زعمت الخالة مارتا ، نطاسى بارع واشهر طبيب فى المدينة . وشارك فى الحرب ، وقد عالج دملا فى عينها فى ظرف شهر واحد فحسب .

لذا فقد اعترتنا الدهشة حينما لم نشاهد طابورا من المرضى امام بيت الطبيب . تأوه ايلاريون :

— مصيبة على رأسي ! يبدو انه لا يستقبل المراجعين اليوم .

— لا بأس يا ايلاريون ، اهدأ . ساجثو على ركبتي واتضرع اليه ان يعاينك — ودققت الباب بحزم .

سمعت قرقعة في المجاز ، ثم تناهى همس ، وبعدئذ صفقت باب الغرفة ، وطرق اسماعنا هدير آخر ، وفتحت الباب . وقفت على العتبة امرأة صغيرة هلعة ، وقد علق بشعرها ريش وزغب من وسادة . قلت لها :

— نرجو المعذرة . يبدو ان البروفيسور المحترم لا يستقبل المراجعين اليوم ، ولكن عمي جاء من القرية ويحس بأل . . .

قاطعتني المرأة :

— الله يلعنكم . اعتقدت انكم جئتم تسجلون مقياس الكهرباء .

قفزت المرأة على كرسي واخرجت من جيب الروب قطعة سلك ووضعتها تحت عداد الكهرباء ثم نزلت عن الكرسي .

— ماذا تريدان ؟

— يجب ان يستقبلنا الدكتور المحترم من كل بد . ولن نبرح هذا المكان حتى يستجيب — قلت ذلك وتهيأت لصد الهجوم المضاد .

— يا مرحبا ، يا مرحبا ! لحظة واحدة ! تفضلوا . من ارسلكم الينا ؟ تفضلوا الى الغرفة . مامونتي ، مامونتي ! جاءك مرضى ! مرضى !

اختطفت المرأة ايدينا ودفعتنا الى الغرفة واغلقت بابها بالمفتاح من الخارج وركضت وهي تصرخ «مامونتي ، مامونتي !»

بعد دقيقة اندفع الى الغرفة رجل طويل غير حليق يرتدي بيجامة مقلمة . كانت احدى عينيه خضراء والاخرى حمراء . خاطبنا بنبرة صارمة :

— اجلسا .

تلفتنا حولنا . كان فى الغرفة سرير وطاولة كتابة وكرسيان .

— هنا يجلس المريض وهناك المرافق ، — قال الطبيب وهو يؤشر الى الكرسى والسرير . اما هو فقد جلس الى الطاولة . جلسنا فى الاماكن التى اشار اليها . سأل الطبيب :

— مم تشكو ؟

فرد ايلاريون :

— عينى .

— ما الموضوع ، تؤلم ؟

— كلا ترقص ! الا ترى اننى سأفقد البصر ؟

— هل تعالجت فى القرية ؟

— كنت امسح عينى بالشاى ، ثم بالحليب .

— الم تجرب السكر ؟

— تسخر ؟ — قال ايلاريون مستاءا .

— بالعكس . يبدو ان لديك الكثير من الحليب والشاى ! تشرب . خمر ؟

— اشرب .

— لا يصح .

— ولكننى اشرب خمرا جيدة ! — رد ايلاريون مهدئا الطبيب .

— تدخن ؟

— اجل !

— اذن اعطنى سيجارة !

خاطبنى ايلاريون :

— اعطه سيجارة !

مددت العلبة ، فأخذ الطبيب سيجارتين وضع الاولى بين شفتيه والثانية فوق اذنه وقال شارحا :

— سادخن الثانية بعد الغداء .
— تفضل ، خذ المزيد .
— نزولا عند مشيئتك واحتراما لك سأدخن اثنتين بعد الغداء !
— قال الطبيب وهو يستل من العلبة سيجارة اخرى ويضعها خلف اذنه الثانية . من حسن الحظ انه لم يكن لديه سوى اذنين ، والا لبقينا وايلاريون دون سيجائر ذلك اليوم .

دخن سيجارة ، ثم جلس بالقرب من ايلاريون وضغط باصبعه على العين المريضة ، فهب ايلاريون .

— تشعر بألم ؟
— اشعر بالبهجة !
— انت عصبي ؟
— لم اعد عصبيا فقط ، بل طار عقلي ! مستعد اناطح الحائط .
— ايه . . . مرض العين ! . . اذكر مرة آلمتنى عينى ، ويا له من الم ، بطلعان الروح خلصونى من حبل ربطته برقبتى .
— ماذا حصل لك ؟ — سأل ايلاريون مؤاسيا وامرنى باشارات من يده ان اضع العرق والخبز على الطاولة ، فامتثلت . زمجر الطبيب :
— ما هذا ؟

فرد ايلاريون :

— الجو بارد عندك ، ولا بأس من قدح يدفىء .
— قدح واحد فقط ! — وافق الطبيب وهو يخض القنينة .
— عرق بلدى ! ٦٠ بالمائة كحول ! — قال ايلاريون ونثر الاقلام من جرة فخارية صغيرة على الطاولة ، ثم اترع الجرة بالعرق و سلمها الى الطبيب .
— صحتكم ! — قال الطبيب وكرع العرق دفعة واحدة ، ثم تنحنح وهز رأسه وشرع يقضم الرغيف .

شربنا نحن .
واصل الطبيب حديثه بعد القدح الثانى .
— اذكر لما كانت عينى تؤلمنى . . . ما أسمك ؟
— ايلاريون !
— وانت ؟
— زوريكو !
— الكلام مقطوع بخير . . احاط بى الاطباء ، واخذوا يزقوننى بالادوية : هذا دواء المانى ، وهذا امريكى ، وذاك محلى . . لا نفع ولا دفع . . اسمك ؟
— زوريكو !
— نخب ايلاريون ! — قال الطبيب .
— نخب الدكتور ! — قال ايلاريون . شربنا القدح الثالث . ربت الطبيب على خدى وسأل عن اسمى . ثم ربتّ انا على خده وقلت «زوريكو» .
— احاط بى الاطباء ، يا عزيز الروح زوريكو ، واخذوا يزقوننى بالادوية . قل لى ، بربك ، هل رأيت مريضا اشفاه الاطباء ؟
— وهذا كلام ؟ ابدا !
— الكلام مقطوع بخير . . عالجونى وعالجونى ، حتى اقتلعوا عينى وأطّروا الحفرة بالزجاج . لكن ماشى الحال ، الشغل نظيف . هل تلاحظان شيئا ؟ تمعنا كما ينبغى !
حدق ايلاريون فى عينى الطبيب :
— اى منهما ؟
— هذه ، الحمراء !
— قسما بالله ، لا تفرق عن العين الحقيقية ! اما اذا صُبغت باللون الاخضر ، فلن يلحظ احد شيئا .
— شايف ؟ وانت ، اى عين تؤلمك ؟

رفع ايلاريون صوته :
— دكتور أليست عيناك الاثنتان من زجاج ؟
ابتهج الطبيب :
— واحدة فقط ، كلمة شرف ! الم اقل لك انه يصعب ملاحظة ذلك ؟
رفع ايلاريون الجرة :
— صحة كل الاصحاء ! وقانا الله شر الطاعون والاطباء وكل البلايا الاخرى !
— انا طبيب ، — استهل رب البيت قوله وهو يستلم القدح — حقا ، ليس لدى شهادة ولا توجد على بابى لافتة رخامية ، لكنى طبيب رغم كل شيء . ثمة مستاؤون من عملى فى الوزارة ، وهناك من يكتب عنى تقارير ، وقد دفعت غرامات ، ولكننى ابصق على ذلك كله ! فان معارفى معى دوما . الكثيرون لا يحبوننى . المرضى لا يحبون الاطباء ابدا ! هذا ما لا يخفى على احد . غير ان الاطباء يحبون المرضى على الدوام ! . . هل يجوز الثقة بالاطباء ؟ ابدا . . ها — ها ، الاطباء ، لو اطلقت يدهم لاقتادوا العالم كله الى القبر . . ما اسمك ؟
غضب ايلاريون :
— اسمه زوريكو ، وكفاك شربا ، والا بقيت بلا مخ . والمخ ليس عينا ، لا يمكن ان يوضع بديل مكانه .
— هراء ! الطب الحديث وصل الآن يا عزيزى . . . ما اسمك ؟ — وجه الطبيب سؤاله الى ايلاريون .
— لا اسم لدى . خبرنى ، اذا استطعت ، عن مرض عينى ، والا فسأطرحك فى الفراش ، وننهى المسألة .
— . . . وصل الطب الآن الى مرحلة ، بحيث سرعان ما سيكون بوسعه استبدال انسان باكمله ، وليس المخ وحده . مثال :

يجيئون بانسان حى الى الطبيب ويجلسونه فى المقعد . يضغط الطبيب زرا ، وهاكم : خذوا جسدا بلا روح . هذا الحكى !

— اعرف هذا بدونك ! — غمغم ايلاريون .

— طيب اذا تعرف ، لماذا تخاف ؟ ويعنى ، وان قلعت عينك ؟ يضعون مكانها عينا جديدة احسن من القديمة ! قل لى ، بربك ، هل العين الزجاجية اسوأ من الحقيقية ؟ تضعها فى قدح ماء وتنام قرير العين ! او ، مثلا ، اذا كنت تغتسل ودخل صابون فى عينك . الصابون للعين الحقيقية مصيبة ، اما العين الزجاجية ، فلا الم ولا هم يحزنون . او مثال افضل : انت جالس عند الوجاق تتدفأ ، وفجأة خدشت عينك شرارة . العين الحقيقية قد تعمى نتيجة ذلك ، اما العين الزجاجية فلا تحس ... او هاك مثلا آخر...

— الافضل ان تسكت يا اخانا ! — قال ايلاريون وهو يتحسر .

— اريد ان اعرف هذا الاهبل الذى سمّاك طبيبا ! عبقرى انت . بل اننى اخذت افكر : اليس من الافضل ان اقلع عينى الاثنتين واستبدلهما بعينين من زجاج ؟ ما رأيك ؟

— وماذا كنت تعتقد ؟ .. الطب ، يا اخ ، شيء عظيم ! تسقط العيون الحقيقية ! تعيش العيون الاصطناعية !

— تعيش العيون الاصطناعية ! — كررت الشعار الذى رفعه الطبيب وواصلت : — هذا اعز انسان لدي فى العالم ، انه ايلاريون ، حبيب قلبى ، وعينه تؤلمه ...

— اى عين ؟ — تساءل الطبيب محتارا وحدق فىّ ، فقلت :

— العين اياها !

— سوف نقتلعها . مثل ما نستل الشعرة من العجين ! بابالى ! هات ماء فائرا وسكينا ! — تفوّق الطبيب وارخى رأسه على الطاولة . شرعت بابالى الباب وهى تتساءل :

— اجلب ماذا ؟

— اجلبى طشتا وضعيه امامه ، — قال ايلاريون .
صرخت بابالى :
— سبحانك يا رب ! ماذا حصل له ؟
فاجبت :
— لم يحصل شيء يذكر لحد الآن .
ولولت المرأة :
— مامونتى ، مامونتى !
— عجبا ، اى ابله عمّده بهذا الاسم ؟ — قال ايلاريون .
— «مامونتى !» ما هذا الاسم ؟ الافضل لو سموه سيرابيونا ! ما رأيك ، زوريكيلا ، اليس اسم سيرابيونا مناسبا له ؟
ابتسمت ابتسامة عريضة ، ولكن لم ارد بشيء . كانت الغرفة تسبح فى النور الساطع ، تارة ، وتغرق فى العتمة تارة اخرى ، والجدران تتأرجح طوال الوقت .
انقضت بابالى على ايلاريون :
— ماذا فعلتم به ؟
فرد مكشرا :
— اغربى عن وجهى . ما دخلنا نحن ؟ لا يعرف كيف يشرب ، وكان الاحرى به الا يكرع العرق ! ما استطاع حتى ان يكشف علىّ ، السافل !
— ولا يهمك ، ايلاريون ، سأكشف انا عليك ! — قلت واخذت من الطاولة عصا اشارة وضعت رأسها على لوحة حروف معلقة على الحائط وسألت : — ما هذا الحرف ، يا عزيزى ايلاريون ؟
— اى حرف يا نور عينى ؟
— هذا !
— ايها ، ارعن ، إقرأ !
— حرف التاء هذا .

— تو !

— انت عبقرى ، يا عم ايلاريون ، نظرك سليم تماما . وهذا الحرف ؟

— اى منها ؟

— شبيه بالتاء ولكنه منقوط من الاسفل !

— اعتقد انه الحرف باء !

— هات قبلة ! — وتعانقنا .

صرخت بابالى بصوت كالمواء :

— برّه ! اورنى عرض اكتافكم !

— طيب ، طيب .. سنخرج .. لا فائدة ترجى من زوجك . ميت يمشى على ساقين .

— برّه .

— «انا جورجى وانت جورجى ، ريـ يـ روو» ، — شرع ايلاريون يردد اغنيتنا الجورجية الشهيرة ، ووضع يده على كتفى فغادرنا دار مامونتى تسفيرافا ونحن نترنح .

... فى تلك الليلة اشتد الالم فى عين ايلاريون ، حتى لم يعد يطاق . اضطررت لاستدعاء سيارة الاسعاف . كان ايلاريون يبتسم ويهدىء من روعى :

— لا تبتئس يا اهبل ! لا تخف ، لن يحصل لى مكروه . رب ضارة نافعة لصوفيا ، فقد حل يوم عيدها ، وسوف تستلقى اليوم فى مكانى كالاميرة ! ارفع رأسك ، سامع ؟

ظللت واقفا فى الفناء محتقن العينين فى حالة يرثى لها ، اتطلع الى ايلاريون . كان جرس صوته مرحا وقد رسم على محياه ابتسامة مفتعلة ، ولكن لم يفتنى ان شفتيه كانتا ترتعشان وان دموعا ساخنة كانت تنحدر على خديه المتغضنين .

... بعد مضى خمسة عشر يوما خرج ايلاريون من المستشفى

بعين واحدة . دخل الغرفة بصمت وجلس صامتا . لم اوجه له اى سؤال ، ولم ينبس هو بكلمة . استمر الحال هكذا طيلة اسبوع . اخذت احضر المحاضرات بانتظام ، واصبحت مهذبا ورقيقا مع الجميع ، وكنت استحث الخطى بعد الدروس لاعود الى البيت ، الى ايلاريون العزيز .

ذات مرة عدت من الجامعة وافتقدت ايلاريون فلم اجده فى الغرفة . اطللت من النافذة وتسمرت فى مكانى . كان الجو دافئا مشمسا ، وشاهدت ايلاريون جالسا على مقعد فى الفناء تحت شجرة توت ظليلة ، وقد تربعت صوفيا على ركبتيه . كان ايلاريون يمد بصره متأملا السماء ويدخن مدغدغا بحنان ظهر صوفيا المسترخية ، ويسر لها حديثا بصوت خافت .

ارهفت السمع .

— اسمعى يا غبية ، اسمعى ! اتفهمين ما معنى ان يكون المرء اعمى ؟ يعنى انه لا يرى الشمس والقمر والاشجار والبشر . . . يحيا فى ظلام دامس . . لو لم اوافق على اجراء العملية لفقدت بصرى . فاهمة ؟ لم تفهمى شيئا يا حمقاء ! آخ لو كان هنا مرادا العزيز ! اما انت ، فلست سوى مخلوق غبى . . هيه ، زعلت ؟ حسبك ، حسبك . . كيف اعود الآن الى القرية ؟ كنت طوال حياتى اعيّر ايليكو بانه ابليس اعور . . اين اولّى وجهى الآن ؟ . . طيب . لنفترض اننى امضيت هنا شهرا آخر ، او اثنين او ثلاثة . . وبعدين ؟ اذ يجب ان اعود الى اهلى فى خاتمة المطاف ؟ ولكنه قد لا يلحظ شيئا ؟ مستحيل ! ليس غبيا الى درجة انه لا يميز العين الزجاجية من العين الحقيقية ! . . الا يجدر بى ان اهديه عينا زجاجية ، ما رأيك ؟ اسلمه الهدية واقول له : «حسبنا يا شيخ ، ولّى زمن الهزل والمجون . . ضع هذه الزجاجة واسعد بها هدية منى . . نحن من الآن صنوان . .» . هل تعتقدين انه سيبتهج لمصيبتى ؟



اجل ؟ لا تكررى هذا الكلام ابدا . كيف تجرأت على التفكير بذلك ! انك لا تعرفين صديقى ايليكو . سوف يموت الشيخ كمدا . كلا ؟ كيف لا ونحن وزوريكيلا — صاحبك الارعن — اعز ما لديه فى الدنيا ؟ طيب ، اذهبى ، فانك فى كل الاحوال لن تدركى ما اقول . . .

انزل ايلاريون القطة من ركبتيه بحذر ودفعها برفق . اتجهت صوفيا صوب النافذة ، وشيّعها ايلاريون بنظراته ، فلاحظت انه يبكى .

بكيت انا ايضا . مكثت ابكى وابتهج لان ايلاريون لا يرى دموعى .

مرحبا ايلاريون

لم يعد ايلاريون يطيق المكوث فى تبليسى بعد اجراء العملية . آذار على الابواب ، وثمة ما يشد ايلاريون الى القرية ، الى حيث تنتظره بقرته العرجاء العجوز وديكه المشاكس الذى لا يقر له قرار ، حيث تنتظره الارض التى شب عليها والشمس التى نعم بدفئها ، ينتظره الربيع ، حينما تستيقظ الارض من سباتها ، فصل العمل والامل .

لم يكن بوسعى ان اترك ايلاريون يعود الى القرية وحيدا ، اذ كان ما زال واهن القوى . اضف الى ذلك ان الشيخ كان يخشى لقاءه بايليكو كما يخشى عزرائيل . توسلت الى عميد الكلية ، وانا اذرف دموعا حارة ، حتى منحنى اجازة ليومين ، فغادرنا المدينة فى مساء اليوم ذاته متجهين الى القرية .

. . . لم يكد قرص الشمس يرتقى الجبل حتى كنا قرب قريتنا . الكلاب تنبح متكاسلة بعد ان انهكها سهر الليل . العصافير تملأ الاشجار التى غسلها الندى . ثمة ضباب خفيف يخيم فوق القرية .

— انظر ، زوريكيلا ، جدتك صبّحت بالشغل ! — قال

ايلاريون واشار بيده الى عمود دخان ابيض يتعالى فوق دارنا .
انطلقت اركض منحدرا على سفح الجبل صارخا :
— جدة ! . . يا جدة !
خرجت جدتى المحدودبة تربط منديلها الباهت اللون وهى سائرة .
— جدة — ة — ة !
وضعت جدتى راحة يدها فوق عينها ، وظلت لدقائق تتطلع الى الافق ، ثم اختضّت فجأة واحتارت ، محاولة ان تصرخ شيئا . بعدئذ فردت يديها واندفعت لملاقاتى .
— زوريكيلا ، وليدى !
تعانقنا عناقا حارا ، ثم رفعت جدتى على يدى وحملتها الى البيت .
— ولدى ، نور عينى . اخيرا ! سبحان الله من تشبه الآن ؟ عظم وجلد . قلت لك ان العلم يؤدى بمن تشاء الى اللحد . سبحانك يا رب !
— كيف الحال ، جدة ؟
— الاحسن ان تحدثنى انت عن نفسك . اكملت الدراسة ؟
— معقولة يا جدة ؟ لا زلت فى اولها !
— مصيبة على رأس جدتك ! يظهر انك تدرس عوضا عن كل الطلبة . ان شاء الله يروح معلمك فى داهية ! بماذا يفكر ؟ اشرح له ، قل له : عندى جدة مريضة ، وحيدة ، عجوز اعياها الصبر . قد يرق قلبه المتحجر ويسرع فى دراستك .
فطمأنتها :
— سوف اقول له يا جدتى ، من كل بد .
ايلاريون يقف خلف ظهرى ، يهز رأسه وينتظر بصبر ان اضع جدتى على الارض . ثم قال اخيرا :

— مرحبا ، اولغا !

— ايلاريون ، يا عزيز عينى ، سامحنى بحياة الرب ! طار عقلى من الفرح . كيف حالك ، كيف عينك ؟

— اى عين يا اولغا ؟ لم تعد لى عين !

— لا تخرف ، ايها الشيطان الهرم !

— اقسم بالله ، يا اولغا !

— ولكن ما هذه ، اليست عينا ؟

— احم . . عين ، طبعا . . . مثل عين الصقر المحنط المعلق على الحائط عند ايليكو . . .

— يعنى معقول تكون زجاجية ؟

— نعم !

— سبحانك يا رب ! ولكن هوّن عليك ، ايلاريون . . فنحن معك يا عزيز الروح ! ما لنا واقفون فى الفناء ؟ ادخلوا ، ادخلوا البيت . انكم ، حتما ، جياع بعد السفر ! — قالت جدتى ثم ادخلتنا الدار .

. . . تناولنا الفطور وانتقلنا الى بيت ايلاريون ، واتخذنا مواقع رصد عند النافذة وشرعنا ننتظر قدوم ايليكو . طال انتظارنا . اخيرا تناهى صريف باب الحديقة ودلف ايليكو الى الفناء ، فحبسنا انفاسنا . صرخ ايليكو :

— ايلاريون !

— إستقبل الاعور ! — قال ايلاريون بصوت مبحوح ومد يده ليتناول جرة الماء . خرجت الى الطارمة .

— مرحبا ، يا عم ايليكو . تفضل !

رد ايليكو :

— مرحبا ، يا بروفيسور ! — وصعد الى الطارمة وعانقنى بحرارة ، ثم تراجع خطوة وظل يتفحصنى طويلا من قمة رأسى الى

اخمص قدمي . هز اخيرا رأسه بأسف وعاد يقبلني .

— يا ارعن ، يا عزيز قلبي ! هات ما عندك ، كيف الاحوال ، كيف الامور ؟ اكيد طيّرت عقل الاساتذة ؟ وما هذا ؟ شارب ؟ — تملك ايليكو العجب بغتة فشدّ شاربي وسأل : — حقيقي ؟

— حقيقي !

— كذاب ، مستحيل !

— اقول لك ، حقيقي .

— شارب لواحد سافل مثلك ؟ لا انصاف في الدنيا ، وإلا لولدت املط . اين ايلاريون ؟ هيه ، اطلع لنشوف ابا المناخير .

فرد ايلاريون :

— اذا جئت ضيفا فادخل ، والا فانقشع !

دلف ايليكو الغرفة .

— مرحبا ايلاريون !

— مرحبا ايليكو !

تعانقا وظلا يتبادلان القبل طويلا . ثم دعانا ايلاريون الى خوان صغير ووضع عليه النبيذ والبصل المنقوع بالملح . لم ينعقد الحديث . كان ايليكو يدخن ، وانا اتطلع الى ايلاريون ، وايلاريون يجلس متجهما وينتفض لدى كلمة يتلفظ بها ايليكو . واخيرا هدم ايليكو جدار الصمت :

— ما تحدثونا عن اخبار المدينة ؟ كيف الاسعار هناك ؟ — ثم التفت الي فجأة وسأل : — هل جلبت شيئا من السمك المقدد ؟

— نسيت !

— بماذا كان فكرك مشغولا يا ابن الكلاب ؟ ايلاريون ، ماذا تراه يفعل هناك ؟ هل يذاكر ام لا ؟

— لا اعرف . . وعلى اية حال لم ار انا كتابا في يده ابدا .

— يبدو انه كان يذاكر شفاهيا . . . فى اى صف انت الآن ، يا ارعن ؟
استبد بى الغضب فقلت :
— لاى غرض جئت ، لتستجوبنى ؟
— وهل هناك موضوع آخر احدثك فيه غير دروسك ، يا ابن الكلاب ؟ اما اذا كنت حمالا ، فقلها صراحة . عندها سنتحدث فى هذا .
— اجل ، حمال .
رمقنى ايليكو بنظرة جانبية وملأ القدح بالنبيذ وقال متبرما :
— فلنشرب نخب وصولكم . . . امّا ناس بلا ضمير ! جئت اليكم رأسى قبل رجلى ، معتقدا ان اصدقاء وصلوا ، وسوف نتبادل الاخبار ونجلس ونثرثر . . . اما انتم ؟ مثل القنافذ التى ابرزت ابرها . طز عليكم ! كنت اعرف منذ زمان ان ابا المناخير هذا لا يفرق بين العدو والصديق . ولكننى ، يشهد الله ، لم اكن اتوقع منك ، يا ابن البارحة ، مثل هذه النذالة !
احسست بالخجل فدنوت من ايليكو وقبلته قائلا :
— سامحنا ، ايها العزيز ايليكو ! كل ما فى الامر ان التعب امضّ بنا بعد السفر .
— اسكت ، ارجوك ! يسعدنى ان اراكما ، وليس لى غرض آخر . . ام انكما تعتقدان اننى جئت الى هنا سعيا وراء هذا النبيذ المتحمض .
غمغم ايلاريون :
— اعرف لماذا جئت !
— اذن ، قل ما عندك ايها الهرم السليط اللسان .
— فرحان ، ايها الابليس الاعور ! ايه ، انا الآن بين ايديك . يلّه ، عضنى ، مزقنى ، انهشنى . ها انا ذا ولن اهرب من امامك .

— ماذا دهاك يا شيخ ؟ مسّك جن ام عضك كلب مسعور ؟ اى سم سقوك فى المدينة ؟ راح تبرا وعاد تبنا .

تبادلنا وايلاريون نظرات حيرى . احقا لم يلحظ ايليكو شيئا ؟ احقا انه لم يحدس شيئا ؟ بلى ، يبدو ان عين ايلاريون الزجاجية قد صمدت امام الاختبار . وقررنا اخيرا ان كل شيء على ما يرام ، فعمرت نفوسنا البهجة .

رفع ايلاريون كأسه :

— نخب وصولنا ، ونخب لقائنا بك يا عزيزى ايليكو !

سرّ ايليكو وقال :

— ما تقولها من الاول ! كدت تطير عقل الشيخ الاعور المسكين . . وهل عندى فى هذه الدنيا من هو اعز منكما ؟ يعطيكم العافية — وقبلنا بحرارة .

بعد القدح الثالث شرع ايليكو يغنى :

سأدفن فى هذه الاقداح
كل ما فى القلب من اتراح
اهنأ بلقيا الحبيب
فانه نِعم الطبيب

عانق ايلاريون صديقه وهو يقول :

— ايليكو ، عزيزى ، انت تعرف مدى حبى لك !

— اعرف ، اعرف ، يا ايلاريون ، اعرف انك تحبنى اكثر مما تحب عينك .

ارتاب ايلاريون حينما ورد ذكر العين ، غير ان ايليكو واصل غناءه وكأن شيئا لم يكن :

ادر كوءوس الراح

نشربها ، نرتاح

— صحة ايليكو .

— صحة حبيبنا الارعن .

— صحة انف ايلاريون .

واصل ايليكو الغناء :

دعي حصاني يرتقي
كل الذرى لأستقي
نظرة من مقلتيك

عاد ايلاريون ينصت متوجسا ، بيد ان ايليكو اخذ يردد ببراءة الحمل الوديع اغنية جديدة ، وكأن شيئا لم يكن :

في المرج وفي البرية
اغمز لأمّ العين السحرية

شرق ايلاريون . وبعد ان استعاد انفاسه رمق معذبه بنظرة متفحصة . غير ان ايليكو لم يعرنا انتباها واستمر يغني بوجد :

بدد ظلام الليل
يا نور عين الحبيب . . .

غدا ايلاريون على قناعة اكيدة من انه خدع ايليكو . وبلغت به الجرأة حدا . انه لم يعد يسمى ايليكو الا «الاعور» ولم يمتعض ايليكو اطلاقا .

دنت الامسية من نهايتها عند انتصاف الليل . نزلنا الى الفناء متعانقين ونحن نغني . اوصلنا ايلاريون الى باب الحديقة . ولما عبرنا السياج التفت ايليكو فجأة وصاح :

— ايلاريون !

— ماذا تريد ، يا اعور ؟

— لا تنس ان تضع عينك في قدح ماء حتى الصباح !

فتساءل ايلاريون المذهول بصوت مبحوح — ماذا ؟

— لا شيء . . بوسعك الآن ان تغمز من قناتي متى شئت .

ولول ايلاريون :

— ايليكو تشيغوغيدزه !

— ليبق اسمي على لسانك كي لا تنساه . . . عموما اقول انك قد وفقت ، فانت تحب الصيد ولن يترتب عليك حتى ان تغمض عينك : تجوّل في القرية ما طاب لك واصطد الكلاب .

— ايليكو تشيغوغيدزه ! لا تجعلني ارتكب معصية ، — زعق ايلاريون وهو ينطلق من مكانه . فردّ ايليكو محذرا صديقه المغتاظ :

— طوّل بالك ، ايلاريون ! الاحسن ان ترأف بزجاجتك .

ارتخى ايلاريون على حين غرة . ظل دقيقة يتطلع الى ايليكو ساهما ، ثم استدار وجرجر خطاه ببطء نحو الدار واقتعد السلم .

بقي ايليكو واقفا على قارعة الطريق فترة ، ثم فتح باب الحديقة وعاد الى ايلاريون وجلس جنبه . اخرج ايليكو كيس التبغ من جيبه ولف سيجارة ثم مد يده بالكيس لايلاريون ، غير ان هذا ظل متسمرا . فقال ايليكو هامسا : «خذ» .

اخذ ايلاريون الكيس ولف سيجارة . قال ايليكو :

— انكسر قلبي لما سمعت بمحنتك . يشهد الله انني اقول الحق . . . لا فرق بيننا يا ايلاريون . . مصيبتك مصيبتي . . انا لا ازعل حينما تسميني الاعور . . فقدت عينا واحدة ، ثم ماذا ؟! كوتوزوف* كان اعور ولكن كل واحد يتمنى ان يمنحه الله مثل هذا البصر : يشق الارض ويرى ما بداخلها . طيب فقدت عينا ، ثم ماذا ؟ حتى لو فقد كل منا عينه الثانية ، لن نضيع . سيأخذ كل بيد الآخر ، ونجوب ارض الله الواسعة . واذا عجزنا فان زوريكيلا

* ميخائيل كوتوزوف (١٧٤٥–١٨١٣) من مشاهير القادة العسكريين الروس ، تولى قيادة الجيش الروسي ابان التصدي لحملة نابليون عام ١٨١٢ . **الناشر** .



سيقودنا . ايه ، يا شيخ ، — قال ايليكو وربت على كتف ايلاريون .

نهض ايلاريون ودخل الغرفة ثم عاد يحمل صرة فى يده وقال بصوت خفيض :

— ايليكو !

فرد ايليكو بصوت اوطأ :

— نعم ، ايلاريون ؟

— هذا قليل من السمك المقدد . . . لذيذ مع النبيذ والخبز

— السمك المقدد على الرأس .

— جلبته لك .

— كنت اعرف انك ستجلبه . . — اخذ ايليكو الصرة ونهض واتجه نحو باب الحديقة على مهل .

— رويدك ، سأوصلك . .

— اوصلنى . .

خرجا من الفناء وسارا على الطريق ببطء . مكثت وقتا طويلا اتابعهما حتى اختفيا فى الظلام الحالك .

تسيرا

سنوات الدراسة اسعد فترة فى حياة الانسان . ينبغى ان يحيا المرء بضع سنوات طالبا لكى يعرف متعة لقمة الخبز المغمس بالثوم ، ويدرك نفسية الطالب الذى يراوغ الكمسارى فى الباص ، ويستلذ بعلامة «ناجح» التى حصل عليها بعرق جبينه ، ويفهم معنى البهجة حينما يستعيد المنحة الشهرية ، ويعرف كنه القشعريرة المقرفة عندما تتخاذل الركبتان قبيل الامتحان ، ويتمتع ببرد الفجر بعد سهر الليالى التى يمضيها الطالب بين الكتب ودفاتر المحاضرات ، ويدرك قيمة الصداقة الحقيقية ، ويشعر اخيرا بالفخر لانه ، وبعد ان كان بالامس فتى قرويا حافيا ، غدا اليوم مواطنا يشار اليه بالبنان ، طالبا

في الجامعة . . . اما كيف تسنى لي ان اؤدي امتحانات القبول واصبح طالبا ، فهذا ما سيبقى الى الابد سرا دفينا واعجوبة تحير ايليكو وايلاريون واساتذتي ، بل وتحيرني انا نفسي . جدتي هي الانسان الوحيد الذي لا يساوره شك في مواهبي الفذة .

ما اروع القوانين في الجامعة ! بوسع الطالب الا يفتح كتابا طيلة شهر ، ولن يحصل على علامة رسوب . بوسعه ان يتغيب عن خمس محاضرات او عشر او خمس عشرة ولن يستدعي احد والديه الى عمادة الكلية . . يحضر الدروس ، او المحاضرات ، كما يسمونها هنا ، من مائة الى مائتي شخص . ثمة من يكتب وثمة من يرسم ، هناك من يتجاذب اطراف الحديث ومن يحل الكلمات المتقاطعة . ويمكن ان ترى هنا الحالمين : انهم لا يكتبون ولا يرسمون ولا يتحدثون ، انهم يجلسون بصمت ويسرحون في عالم الاحلام . اما لماذا لا يفعلون هذا في البيت او في متنزه ، فعلم ذلك عند الله . الكثيرون ينامون قريري العين . وباختصار فان المحاضرات ابتدعت لاشخاص مثلي ، وهذا ما يروق لي جدا . بيد ان للمحاضرات ، كما لكل شيء في الدنيا ، نقيصة كبيرة : فهي تنتهي عاجلا ام آجلا . انجز البرنامج . المحاضرون يرمقون الطلبة بنظرات ساخرة . ثمة خطر كبير يحدق برعيل الطلبة . تحل فترة الحمى الاستوائية : فترة الامتحانات .

ابان هذه الفترة نجتمع في بيت واحد منا ، ونمضغ الاقلام والدفاتر ، مستذكرين عن ظهر قلب فصولا كاملة من الكتب المقررة ، و عاملين على اعداد «الكوبيا» ، وعلى حشو رؤوسنا بما جمعناه خلال ثلاثة ايام من نثار العلم ؛ ونذهب الى قاعة الامتحان منهكين مسهدين ، نتأفف ونلهث ونرتجف ، نتأتئ بكلام غير مفهوم ، ثم نمد رقابنا لنتطلع هلعين الى ورقة الامتحان (كلها الا الرسوب !) اما اذا رأينا علامة «ناجح» ، تلك الحبيبة التي طال شوقنا اليها ،

فان ابتسامة عريضة تنير وجوهنا ونغادر قاعة الامتحان مترنحين .

. . . وها اننى واصدقائى فى غرفتى نستعد لامتحان الجغرافيا الاقتصادية . اسند دور الممتحن اليوم الى تسيرا . نستور واوتار وخفتيسو وشوتا يؤلفون لجنة الاختبار .

يثير صوت تسيرا الرعب فى النفوس :

— الطالب فاشالوميدزه ! فى اى بلدان العالم يستخرج القصدير ، ومن يمتلك اكبر احتياطاته ؟

— القصدير ام النحاس ؟

— القصدير !

— اكبر كمية من القصدير ، على حد علمى ، عند صفار قريتنا على ، ولكن لا ادرى من اين يحصل عليه .

غضب نستور :

— عادت حليمة . . هاهو يهزر ثانية ! اذا كنت لا تريد ان تدرس ، فبوسعك الخروج ولا تعرقل عملنا !

— الى اين اولىّ ؟ انا ادفع مائتين وخمسين روبلا عن هذه الغرفة .

وهنا ارتفع صوت الخالة مارتا من غرفتها :

— اخذك عزرائيل ان شاء الله ، يا عديم الحياء ! اى روبلات هذه ، وانا لم ار منك قرشا احمر منذ سنة كاملة ؟

تبتسم تسيرا :

— فاشالوميدزه ! ننتقل الى السؤال الثانى . انت لا تعرف الاجابة عن الاول .

— ايها المحاضر المحترم ، ارجوك . . .

يفقد اوتار صبره :

— زوريكو ، كفاك عبثا .

— طيب . . . السؤال الثانى عن الصناعات الميكانيكية فى

الولايات المتحدة . . تتألف الولايات المتحدة الامريكية من ولايات . ولكن لا تتصوروا خطأ ان هناك اولياء يخدعون الناس بعقاقيرهم المستحضرة من الاعشاب .

تتبرم تسيرا :

— زوريكو ، ما راح تكف ؟ واصل الاجابة .

— بلغت الصناعات الميكانيكية فى الولايات المتحدة مستوى عاليا من التطور . خلال عام واحد ينتج فورد . . . لا اذكر الكمية على وجه التحديد ، ولكن يقال ان لكل شخص خمس سيارات . . . ثمة سيارة تقف فى الشارع ، فتدنو منها وتفتح الباب .

— الباب ينفتح اوتوماتيكيا ، — قال شوتا مصححا .

— اجل . ثم تضغط زرا فيخرج سيجار ، وتضغط آخر فيخرج عود ثقاب ، وثالثا . . .

يكمل شوتا :

— فيخرج خروف محشى ، وتضغط رابعا فتحصل على عصيدة ساخنة ، وثمة انبوب تمتص منه النبيذ تارة والصاص تارة اخرى . تدعس دواسة فينساب خليط الكريم بالشوكولاته ، وتدعس دواسة ثانية فتنساب «مرافالجامير»* عذبة .

يقول نستور مستغربا :

— وكيف يطاوعه قلبه على بيع مثل هذه السيارة ؟!

يرد شوتا :

— ليس فى اليد الحيلة ، الفاقة والعوز . .

تحتدم تسيرا غيظا :

— الم تملوا الهزار والثرثرة ؟

يصمت الجميع لحظة ، ثم اواصل :

— يقال انه لو صهر ذهب فورد كله وصيغ منه حزام لتمنطقت

* اغنية جورجية تنشد حول موائد الخمر . **الناشر** .

به الكرة الارضية .
— ايه . . لو حصلت على شبك الحزام . . اى اسنان كنت ساركّب ! — قال نستور بنبرة حالمة وقد افتر ثغره عن اسنان سوداء .
كشر شوتا :
— احم . . اسنان ! لو اعطونى ذلك الذهب . .
— ما كنت ستفعل ؟ — سأل نستور .
— قبل كل شىء كنت سأمزق كل المحاضرات والدفاتر . . . ثم اذهب الى عميدنا وأضع على طاولته وثيقة علامات الامتحانات والهوية الجامعية ، واودعه وداعا مهذبا ثم اخرج . . . ولكن ، لا . سأترك له ، قبل ان اغادر ، كيلوغراما من الذهب ليشترى طوابع ، فقد يستبد به الشوق الى ويعتزم مراسلتى . . . ثم : باردون ، غود باى ، اديه ، بخاطركم ، وداعا .
— وبعدين ؟
— بعدين ، ماذا ؟
رجوته قائلا :
— الا تسلفنى الف روبل ؟ الا ترى انه لا عندى ما ادفع به اجرة الغرفة .
— كانت عايزه التمّت ! وما دخلى انا فى الموضوع ؟
— سامعة ، يا خالة مارتا ؟
— سامعة ، ابنى . انتم جميعا من طينة واحدة : تنابل وافاقون .
— اجب عن السؤال الثالث . — ذكرتنى تسيرا .
قلت خجلا :
— لم اتهيأ للاجابة .
خاطبت تسيرا اعضاء لجنة الامتحان :
— هل ثمة اسئلة ؟

قال اوتار : — اسمحوا لى .

— تفضل .

— استميح اللجنة المحترمة المعذرة ، ولكن ما يشغل بالى هو هل ان هذا المتخلف عقليا يعتزم فعلا اداء امتحان بعد غد ؟

رددت غاضبا :

— انا ارفض الاجابة . لا يوجد فى المنهاج مثل هذا السؤال .

ثم يحل دور الزميل التالى .

. . . يتفرق الشمل فى هزيع متأخر من الليل .

يسكن اوتار ونستور وشوتا فى المدينة الجامعية ، بينما تسكن تسيرا فى شارع ماتشابيلى . ارافقها الى البيت كل مرة . تسيرا فتاة جميلة زرقاء العينين ، شاحبة ، ممشوقة . كل الشباب فى دورتنا مغرمون بتسيرا ، ولكنها لا تحب احدا ، ولا ترافق احدا سواى . نمضى ساعات طوالا فى الجنينة ، نتحدث بلا انقطاع او نلتزم الصمت . وحينها يكون لنا شبه بالعشاق . هذا ، على اية حال ، ما يقوله زملاؤنا .

. . . نسير الهوينا فى شارع روستافيلى . الحراس الليليون النائمون عند بوابات المتاجر يرفعون رؤوسهم ويرمقوننا بنظرات مستريبة ثم يغفون ثانية . لا يخطر على بالهم البتة ان تبليسى فى الليل جميلة الى هذا الحد . الصمت يلف المدينة ، لا يقطعه الا صريف عجلات الترامواى بين حين وآخر ، والصفير الناعس الذى يطلقه رجال الميليشيا الخفر .

— زوريكو !

— نعم تسيرا !

— هل تحب التجوال ليلا ؟

— اجل .

— الا تشعر بالخوف ؟

— كلا . وانت ؟
— خائفة .
— مم تخافين ؟
— واذا سلبونا ملابسنا ؟
— بالنسبة لي لا يمكن الا ان أُكسى . . .
— واذا سلبوا ملابسي انا ؟
— سأغمض عيني حينها .
— وهذا كل ما في الامر ؟ يا للفارس المغوار !
— مثل ما تريدين ، سأتطلع اليك عارية . موافقة ؟
— ارجوك ، كف عن الهزار . انا اعرف انكم ، شباب القرية ، اقوياء ولكنكم اجبن من دجاجة .
— لا اخاف إلا المدية .
— وانا ايضا . اخاف المسدس كذلك .
— وهل تخافين الفئران ؟
— طبعا ! زوريكو ، هل ترى ؟ ثمة رجلان ، انهما يسيران نحونا .
— اراهما .
— انهما ثملان . لننتقل الى الرصيف الآخر .
— عيب .
— لننتقل ، ارجوك . — التصقت تسيرا بي .
— لا تكوني حمقاء ، عيب .

توقف الرجلان عند كنيسة كاشفيت وتعانقا وظلا يتبادلان القبل طويلا ، ثم استدار احدهما وعاد ادراجه ، واتجه الآخر نحونا . توقفنا . كانت تسيرا ترتجف كالمحمومة . ركبتي كانتا تصطكان .

اقترب الرجل منا والقى نظرة متجهمة على تسيرا ، ثم حول نظراته الي ، ودس يده في جيبه ثم زمجر فجأة :



— هيه ، عندك سجائر ؟

— طبعا ، طبعا ، تفضل ، — غمغمت وانا امد علبة السجائر .

— نار !

— تفضل ! — اشعلت عود الثقاب بيد مرتجفة وقربته من انف الرجل الغريب .

قال الرجل :

— تركت التدخين يوم امس . ولم اضع سيجارة في فمي منذ ذلك الحين . . . ولن ادخن الآن ايضا ، مجرد تسلية . . . يجب ان يكون الانسان وفيا لوعده ! — مص عدة انفاس قوية متلذذا ، ثم سألني بغتة :

— تدخن ؟

— كلا ، بالطبع .

— عفارم ! دخنت عشرين سنة ، وها انني تركت التدخين . ولن يرغمني احد على ان اضع سيجارة في فمي . — قال ذلك ووضع سجائري في جيبه ومضى مترنحا .

واصلنا سيرنا ببطء .

انتابت تسيرا نوبة مرح مفاجئة ، فاخذت تقفز عبر ظل شجرة دلب ، ثم عبر ظل آخر ، وثالث وخامس ، حتى بلغت فندق «انتورست» واخذت تنط على ساق واحدة .

— هيا ، امسكني !

ركضت في اثرها ولحقت بها ثم امسكتها بقوة من منكبيها .

— اوف ، تعبت .

اراحت تسيرا رأسها على كتفي . وضعت يدا حول رقبتها ورفعت باليد الثانية حنكها وتطلعت الى عينيها الزرقاوين الوسيعتين . قالت متحسرة :

— ايه ، لو طال الليل الى ابد الآبدين .
— لماذا تسيرا ؟
— هكذا . . . الليل افضل من النهار .
رفعت تسيرا يدى والقت رأسها الى الخلف وراحت تتأمل السماء المرصعة بالنجوم . ثم شبكت يدها فى يدى ثانية .
— اكيد انك تحبين احدا ، تسيرا . من هو ؟
— احب السماء ، احب النجوم ، هذا الحارس احبه ، واحب هذه الشجرة ! . . — ركضت تسيرا نحو شجرة الدلب . — الا تصدق ؟ هل تريد ان اقبلها ؟
التصقت بالشجرة واخذت تقبلها وتهزها .
ارتعبت العصافير النائمة على الشجرة ، وراحت تنوح هلعة . اصغت تسيرا الى نواحها ، ثم التفتت الىّ وقالت :
— احب العصافير ايضا !
— امّا عبيطة !
— محتمل . وانت ؟
— اعتقد انى عبيط ايضا .
— كلا ، انت غبى .
— شكرا .
— عفوا . الغباء ليس التعبير الدقيق ، انك اعمى وابكم ! اليس كذلك ؟ آخ ، ليتك لم تكن كذلك !
دنت تسيرا منى وامسكت بياقة قميصى وادنتنى منها ، ثم ظلت تمعن فى عينى ، وسألت :
— أترانى ؟
— العجيب ، اننى اراك !
اخذت تسيرا يدى ، والصقتها بصدرها وسألت ثانية :
— أتسمع ؟

شعرت بقلب الفتاة وهو يخفق متسارعا ، ولسعتنى انفاسها الحارة . . . عانقتها ، بغتة ، وضممتها الى صدرى ثم قبلتها . . .

وها اننا نواصل مسيرتنا بين اشجار الدلب .

— زوريكو !

— نعم ، تسيرا ؟

— احبك .

— تكذبين !

— كلا ، صدقا ، زوريكو .

— تكذبين ، تسيرا ، ولنترك هذه السيرة . . .

صمتت تسيرا واسندت ظهرها الى شجرة . صمتّ انا ايضا واستندت الى حائط . مكثنا ردحا طويلا واقفين ، يتطلع احدنا الى الآخر . دنت تسيرا منى ، وربطت زر ياقتى ، واصلحت شعرى ثم مضت تسير فى الشارع ببطء . مشيت فى اثرها .

التفتت تسيرا ، على نحو مباغت ، فرأيت الدموع تترقرق فى عينيها . خفّت نحوى مسرعة وقبلتنى ثم هربت . . . . بقيت امدا طويلا متسمرا فى مكانى ، اصغى الى حفيف اوراق اشجار الدلب الرائعة .

. . . قفلت عائدا الى البيت . عند مسرح الفتيان لحقت بى حافلة تراموای تأخرت عن موعدها ، فقفزت الى العربة الاخيرة لم يكن ثمة ركاب . انتفض الكمسارى الذى كان يغط فى النوم ، وفتح عينه ثم امرنى ان آخذ مكانا فى مقدمة العربة فامتثلت . ولكنه صرخ طالبا اليّ ان اعود وادفع ثمن التذكرة . عدت ، وقلت له اننى لا املك ثمنها . لم يصدق ، فاخرجت جيوبى الفارغة . قال الكمسارى آنذاك : «انزل مثلما صعدت» . قفزت من العربة فاستقبلنى رجل الميليشيا بالاحضان .

ابتسمت ابتسامة بلهاء وقلت «مرحبا»

— هويتك ، ايها المواطن .

— وما حاجتك لهويتى ؟!

— ايها المواطن ! قلت لك ابرز هويتك ، لنر من اية عجينة جبلت !

— ماذا تقصد بالعجينة ؟

— بلا كلام !

— ولماذا تصرخ ؟

— ادفع غرامة .

— ما عندى قرش واحد . . .

— اذن هيا معى الى القسم . ستدفع هناك .

— اتعتقد اننى سأستلم مرتبى فى الطريق الى القسم ؟ قلت لك اننى لا املك قرشا .

— بلا كلام !

كانَ هناك اربعة اشخاص فى القسم . حالما رآنى المسؤول المناوب حتى قطب وسأل :

— ها ، وقعت مرة اخرى ؟

— ابدا ، افندى ، هذه اول مرة ادخل فيها القسم .

— بلا كلام !

— شايف ، يا ريّس ، اى سافل هو ! طول الطريق يسب ويشتم امى !

— كذب ، افندى . لم اشتم احدا .

— اخرس ! سانظر فى موضوعك ، حالما انتهى من هذا ، — قال المناوب والتفت الى رجل كث اللحية محمر الوجنتين كان يجلس على المصطبة :

— كم مرة يجب ان استكتبك ورقة انضباط ، ها ؟

— كلما تأمر ، اكتب لك واحدة . لن اعترض ابدا !

نهض ابو المناخير ، فتبوأت مكانه . خرج الشرطى الذى اصطحبنى الى القسم .

— كفاية ، كفاية . . . انطق ، اية حماقة ارتكبت هذه المرة ؟

— من ؟ انا ؟ وهذا كلام ، يا ريّس ! انت تسمع كلامه ؟ يسمّى نفسه مدرسا ! اى مدرس هو ؟ لا يمكن ائتمانه على كلب . مدرس !

هب رجل نحيف طويل وقال :

— ارجوكم حمايتى من اهانات هذا السكير . يمكن ان تستفسروا عن مستوى اعدادى المهنى من مديرية التعليم .

صرخ المناوب فى السكير :

— حقا يقول . اختر ألفاظك !

— ولماذا ، اذن ، يتعرض لمهنتى ؟

— ما هذا الكلام ؟ لم ينطق بحرف واحد عن مهنتك ، — تدخلت انا فى الحديث .

— كيف «لم ينطق بحرف واحد» وقد سمانى ، لتوه ، سكيرا ؟

قلت للمدرس :

— ايه ، لم تحسن فعلا .

— ايها الشاب ، لا يمكنك ان تتصور اى مخلوق هذا .

اغتاظ ابو المناخير :

— انت المخلوق .

واصل المدرس حديثه :

— لن اتحدث عن ضربه لزوجته . فهذه ، فى خاتمة المطاف ، مسألة تخصه . ولكنه يشرب حتى الثمالة ، ويصرخ ويزعق ، ويقلق راحة الجيران .

سألت ابا المناخير بنبرة صارمة :

— صحيح ؟

— ماذا يعنى الصحيح ؟ كيف كنت ستتصرف لو كنت فى مكانى ؟ عشرون سنة ، عشرون ؛ فاهم ، وهذا الافندى يسمينى سكيرا . وكأننى لا اعرف ذلك ! لماذا يذكرنى ؟ يقول اننى شقى عربيد ، وهل اجهل انا ذلك ؟ لم يكتف بهذا كله فوجد كلمة جديدة : محسوس . . لا ، مكبوس ، نعم مكبوس .

— ممسوس ، — صحح المدرس .

— اى نعم ممسوس ! ولكن هذا ليس كل شىء . يقول نصّاب .

سألت المدرس :

— معقول انك سميته نصابا ؟

— اوه ، انك لا تعرفه ، ايها الشاب . يجعل حتى ايوب يفقد صبره . سام الجيران بؤس العذاب .

— اى جيران ؟ لماذا لم يتشكّ احد سواك ؟

— خوفا منك .

— ليس خوفا ، بل يحبوننى ويحترموننى .

— تفضلوا ، هذه عريضة وقعها كل الجيران .

— كلهم نصابون ، مثلك ، — ادار ابو المناخير ظهره للمناوب وخاطبنى : — لنتحدث ، ونتأمل : لماذا يسكر الانسان ؟ بسبب المصايب . ولما يكون الانسان فى مصيبة فانه يصبح عصبيا . وعندما يصبح الانسان عصبيا فانه يصرخ . فى رأيه انه محظور على الانسان ان يشرب او يصرخ فى عقر داره . وهذا معقول ؟

— لا ، ما اعتقد . يمكن للمرء ، بالطبع ، ان يشرب ، ولكن . . .

ابتهج ابو المناخير وقال :

— الحمد لله ، اننا وجدنا اخيرا بشرا سويا .

— وهل هذا شرب ؟ انه يكرع الخمر بالبراميل ! ليذهب الى جهنم ، وليشرب حتى سم الفئران ، ولكن لماذا يجب ان نتحمل ، نحن الجيران ، العواقب ؟ حسبك ان تنظر اليه ، أترى اى انف احمر له ؟

قال ابو المناخير متظلما :

— سامع ؟ يهينني امام شهود .

قلت :

— كلا ، الحقيقة ، هى الحقيقة . انفك احمر فعلا .

— وما العيب فى ذلك ؟ وما شأن الناس بانفى ؟ اذا اردت صبغته باللون الاخضر ، وهل هذا محظور ؟

خاطبنى المدرس :

— ايها المحترم ، اسمح لى ان اعرف اسمك . . .

لم يتسن لى الاجابة ، اذ هبطت قبضة المناوب على الطاولة بكل قوة . فاهتز الزجاج فى النوافذ ، وحل صمت مطبق .

صرخ المناوب :

— كيف تجرؤ ، يا غِرّ ، على استجواب الناس هنا ؟ انهض حالا وانزع القبعة .

— ولماذا تغضب ، افندى ؟ انا اقدم لك العون .

— لا حاجة لى بعونك . وانت ، — التفت المناوب الى ابى المناخير ، — اطلع برة ، ولا تجرؤ على ازعاج الجيران مرة اخرى .

— حاضر ، يا ريّس . ولكن لى رجاء . . . انا انسان هادىء ، وديع ، ولم اقتل ذبابة طوال حياتى . . . ليكف عن تسميتى بالنصاب !

— اطلع !

— طالع ، طالع .

اتجه السكير صوب الباب ، ولما صار فى محاذاتى انحنى وقال :

ـــ سوف انتظرك فى الشارع . . . حالما تخرج اضيّفك ضيافة ملوك .

صرخ المناوب :

ـــ اطلع ، قبل ان اغير فكرى !

انسل ابو المناخير من الغرفة بسرعة . وضع المدرس عريضته على طاولة المناوب ، وانحنى باحترام وخرج .

بغتة ، شرع الباب محدثا ضجيجا ، ودخلت الخالة مارتا الغرفة كالاعصار . هب المناوب مشدوها ، وخرج من وراء الطاولة ودنا منها :

ـــ ماذا حصل ، يا خالة مارتا ؟ لماذا جئت الى هنا ؟

ـــ ضاع الولد ! ضاع ولدى !

انكمشت فى ركنى .

ـــ اى ولد ، خالة مارتا ؟

ـــ نزيلى زوريكو فاشالوميدزه . خرج ولم يعد . بحثت فى كل المستشفيات واقسام الشرطة . . كأنما انشقت الارض وابتلعته . ساعدنى ، يا ابنى ، خابر الى مكان ما . اذا حصل للولد مكروه ، فسوف اجن ! زوريكيلا ، يا ولدى العزيز ، ماذا حل بك ؟ مصيبة على رأسى ! خابر ، خابر ، يا ابنى .

كنت جالسا فى الركن صامتا ، اصغى الى نديب الخالة مارتا ، وقد توقف وجيب قلبى من فرط الفرح . ثمة من يبحث عنى ، وينشغل باله بمصيرى ! الخالة مارتا ، هذه العجوز المشاكسة ، تجوب المدينة باحثة عنى ، وكأننى ابنها او من اقرب اقاربها !

لم اطق صبرا ، فنهضت من ركنى وعانقتها :

ـــ خالة مارتا ، اننى هنا !

ـــ سبحانك يا رب ! من اين جئت ؟ يا لك من عديم الحياء ، يا ارعن ! اقمت المدينة ولم اقعدها ، وهو جالس هنا

يثرثر ! يا سافل . لماذا انت هنا ، يا مجرم ؟ جاوب .
— مجرد زيارة عابرة ، خالة مارتا .
سألت المناوب :
— لماذا القيتم القبض عليه ، يا ابنى ؟
— لا اعرف ، خالة مارتا . . . اقتاده رجل الميليشيا . .
— لا تعرف ؟ ماذا تعرف اذن ؟ لأى غرض اجلسوك وراء هذه الطاولة ؟ جاؤوا لك بطفل ، ولم تسأل حتى عن السبب ؟ وهل شكله يشبه شكل القتلة وقطاع الطرق ؟ ام انه يشبه الشقاة ؟
— خالة مارتا . . .
— طلعت روح خالتك ! وانت ، يا عديم الحياء ، امش للبيت ! اعتذر من الريّس واطلع بره سيكون لى حديث آخر معك .
دفعتنى الخالة مارتا خارج الغرفة . لم يتسن لى سوى ان الوّح بيدى للمناوب الذى ظل واقفا فاغر الفم من فرط الدهشة .
التزمت الخالة مارتا الصمت طوال الطريق . لما وصلنا باب البيت التفت وطبعت قبلة على خدها . قالت وهى تمسح خدها :
— ولّ ، يا صفيق ، — ثم دلفت الى غرفتها وادارت المفتاح .
لم ارقد .
اخذت بشائر الفجر تلوح فوق المدينة . . .

شيومغفيمه

علاوة على جمع الاشتراكات ، كان رئيس اللجنة النقابية من كليتنا يقوم احيانا ، قبيل الانتخابات ، بتنظيم رحلات ترفيهية . كنا نطلق هذه التسمية ، عادة ، على الزيارات الجماعية للمسارح ودور السينما اما هذه المرة فقد تهيأنا لرحلة حقيقية ، الى دير شيومغفيمه .
زودتنى الخالة مارتا باربع شرائح من البطاطس المقلية . امتنعت

عن تزويدى بالخبز ، متذرعة بان الاوربيين المتحضرين يأكلون البطاطس والمعكرونة من دون خبز . ولكنها عوضت هذا النقص فى المواد الغذائية بمختلف النصائح والارشادات .

كان زملائى ينتظرون الباص فى باحة الجامعة . لم يطل بنا الانتظار : نصف ساعة ونيّف . شغلنا اماكننا بسرعة وشرع السائق يشغل السيارة . اخذ المحرك يهدر وكأنه يتغرغر ، ثم عطس وهمد . خاطبنى السائق قائلا :

— انت ، يا ولد ، ساعدنى .

وقفت امام السيارة وطفقت ادير المحرك بذراع حديدية ، غير انه ظل صامتا .

— انزلوا جميعا من السيارة ، — امر السائق ، فامتثل الجميع وظلت تسيرا وحدها هناك .

— يلّه يا شباب ، ندفع ، مرة واحدة .

— بهمّة يا شباب ، بهمّة !

— ادفع !

— اشتغلت !

— صلوات !

اهتزت السيارة ، وعطس المحرك مرة ، واخرى ثم اشتغل اخيرا .

— خذوا اماكنكم .

شغلنا اماكننا مرة اخرى . مشت السيارة ، واخذت سرعتها تتزايد .

بدأت الرحلة . . .

جلست جنب تسيرا واخذت اختلس النظر اليها ، بيد انها لم تعرنى اى اهتمام . كان نستور يداعب بحنان برميل نبيذ جلبه اوتار . وكان اوتار يتحدث الى الدليل السياحى ، بينما اخذ شوتا يدمدم

باغنية . جلست ، حابسا انفاسى ، انفث الدخان على انف رئيس اللجنة النقابية ، لكى لا ازعج تسيرا .

— فاشالوميدزه ، ارجوك ان تنفث دخانك الى جهة اخرى .

— الى اين ؟

— حيثما شئت . . . هل دفعت بدل الاشتراك ؟

— دفعته .

— ومتى ؟

— امس . هل نسيت ؟

— لا اذكر .

— ضع منديلا فى جيبك واربط عقدا لكى لا تنسى ، وإلاّ فذنبك على جنبك .

انتقل المسؤول النقابى الى المقعد الخلفى .

خرج الباص من المدينة ، فشرع الدليل يشرح :

— انظروا الى اليمين ، هذا نهر كورا .

قال شوتا :

— معقول ؟ هل انت متأكد ان هذا نهر كورا حقا ؟

قهقه نستور بصوت عال والتفت الى اوتار :

— اوتار ، الم يحن الوقت لنسكت عصافير البطن ؟ أشعر بالجوع .

ضحك الشباب ، وتساءل احدهم :

— كم مرة تأكل فى اليوم ؟

— بعدد ما تضيّفنى من مرات .

تعالى صوت الدليل مرة ثانية :

— انظروا الى اليمين ، هذا مكتب الاحوال الشخصية .

— عفارم — قال السائق مبتهجا — اخيرا عرفت الحقيقة .

هؤلاء الخطاطون يخلطون الحابل بالنابل . تفنن احدهم مرة فى

رسم حرف الحاء حتى خيل لى باء . اختلط على الامر ولم اعرف الاحوال من غيرها . . .

واصل الدليل شرحه :

— الى يمين النهر ، نرى دير جفارى* . شيد الدير فى الماضى البعيد ، ولكنه لم يتهدم حتى اليوم .

سألت تسيرا :

— الا تعرف متى سيتهدم ؟

شعر الدليل بوجود فخ ، فصمت . ولكنه عاد بعد دقيقة ليواصل :

— ثمة اسطورة جميلة فكهة لها علاقة بالدير . فقد سكن الدير راهب ، نسيت اسمه . . عاش متنسكا ، زاهدا بالحياة الدنيا . . . وحينما كان يحتاج الى زيارة متسخيتا لأمر ما ، كان يهبط على سلسلة حديدية ، ممدودة بين الدير والمدينة . ذات مرة كان الراهب يهبط على السلسلة ورأى فتاة يسلب جمالها الالباب ، قد خلعت ملابسها وغدت عارية ، كما خلقها الله ، واخذت تسبح فى نهرى متكفارى واراغفى .**

ارتاب السائق :

— فتاة واحدة تسبح فى نهرين ؟

— انظروا الى اليمين ، هنا يلتقى النهران .

— وبعدين ، بعدين ؟

— اختلس راهبنا نظرة الى الفتاة العارية . .

— لم يصبر ، الهرم ؟ — ابتهج السائق .

— لم يصبر . ولعلمكم ، كان التطلع الى الفتيات العاريات

---

* جفارى معبد قرب مدينة متسخيتا ، شيد فى القرن السادس ، ويعد من اهم اثار العمارة الجورجية القديمة . **الناشر** .

** يلتقى هذان النهران عند مدينة متسخيتا . **الناشر** .

محظورا على الرهبان آنذاك .

ابدى السائق تعاطفه :

— آخ ، يعنى ان الراهب خرج عن الاعراف ؟

— نعم . اما عواقب تأمل الفتيات العاريات فهى معروفة لدى كل منكم . . . اصاب الراهب المسكين دوار فسقط من علياته الى النهر . وغرق ، — اتى الدليل على نهاية اسطورته المرحة الجميلة والعبرات تخنقه .

— انتهت الحكاية ؟ — تساءل السائق فهز الدليل رأسه .

— ايه ، ايه . . هكذا تقتلنا النساء والقمار والخمر . . . قبل فترة قصيرة كنت اقود سيارتى فى شارع ، فرأيت ملاكا ! بلا اجنحة ، ولكن ملاك ، اقسم بالله . . لكنها لم تكن عارية تماما . . ندهتها : «ايتها المواطنة ، التفتى» . التفتت ، وحصل لى ما حصل للراهب بالضبط ، فقد علت الغشاوة عينى و . . . اصطدمت بسيارة ثانية . . وبالطبع كان شرطى المرور على اهبة الاستعداد . شرطى المرور هو ربنا الاعلى . الفرق ان الرب ، كما يقال ، يهبط من السماوات ، اما شرطى المرور فانه ينبع من اعماق الارض . . ولا اعتقد ان ما حصل فيما بعد يهمكم ، — انهى سائقنا اسطورته الحزينة المليئة بالعظات .

صحا الدليل ثانية :

— انظروا الى اليمين . هذه كاتدرائية سفيتيتسخوفيلى * . . وقد بترت اليد اليمنى للمعمارى الذى شيدها ، بناء على امر القيصر .

تساءل نستور : — وما السبب ؟

— نميمة ودسائس . . ثمة من وشى به . .

---

* سفيتيتسخوفيلى — كاتدرائية فى مدينة متسخيتا ، شيدها المعمارى ارساكيدزه فى مطلع القرن الحادى عشر . وتتألف الكلمة من مقطعين : «سفيتى» اى العمود و «تسخوفيلى» اى الحى ، وتؤدى الكلمة الاخيرة معنى الحيوان ايضا . **الناشر** .

قال السائق :
— يمكن سرق المواد الانشائية .
تساءلت تسيرا :
— ولماذا سميت الكاتدرائية سفيتيتسخوفيلى ؟
— سميت هكذا لان . . . ولكن هل تجهلين السبب حقا ؟
— نعم .
— كان ثمة عمود هنا . .
— ومن اين جاءت الحيوانات ؟
فشرح شوتا :
— كانت الحيوانات المتوحشة تقطن الغابات المحيطة بالمنطقة .
صرخ الدليل :
— انظروا الى الشمال ، هنا مرقد بطلنا القومى ارسينا مرابديلى* .
— اسد ، ارسينا ، اعرفه ! — هتف السائق واخذ ينشد بحماس :

امتطى ارسينا صهوة الفرس
خب ومرق كالسهم .
اغدق عليها الماس والزمرد
اسبغ على المعدمين العطايا
كل ما سلبه من الاثرياء**

عند الظهيرة بلغنا قرية دزيغفى . نقلتنا عبّارة الى الجانب الآخر من النهر ، ثم اخذنا نرتقى جبل شيمغفيمى . سرنا مجموعة تلو الاخرى . كنت اتابع تسيرا كظلها ، ولكنها لم تتكرم عليّ بنظرة واحدة .

---

* ارسينا مرابديلى — بطل شعبى ناضل ضد نظام القنانة . ولد عام ١٨٠٠ وقتل عام ١٨٤٢ . **الناشر** .

** ينشد السائق هنا ابياتا منفصلة لا يربط بينها رابط من الملحمة الشعبية المسماة «سيرة ارسينا» . **الناشر** .

احسست انها اخذت تتحاشانی بعد تلك الليلة . كنت احب تسيرا حبا جما ، واتمنى ان تبقى علاقاتنا طيبة . وكنت اعرف ان تسيرا لا ترغب فى مخاصمتى . بيد اننا ، ولسبب اجهله ، كنا نخشى البقاء معا ، يخشى واحدنا الآخر .

صرخ نستور :

— زوريكو ، دع الفتاة لحالها . الا ترى انها لا تعيرك اى اهتمام ! تعال ساعدنا .

التحقت بالشباب الذين كانوا يتعاونون على حمل برميل النبيذ ، وقد تصبب العرق من جباههم .

تسيرا تسير فى المقدمة . تنحنى ، بين الحين والحين ، لتقطف زهرة . انا اعشق الزهور . بوسعى ان امضى اليوم كله اتطلع الى زهرة واحدة وارى من خلالها مرجا مرصعا بالزهور ، بوسعى ان امضى اليوم كله اجوب المروج ولا ارى سوى زهرة واحدة ، بوسعى ان استلقى ساعات طوالا ، اتملىّ السماء ولا ارى فيها شيئا سوى الزهور . احب الزهور ، ولكن لا اطيق ان اراها تُقتطف . اكره الزهور اذا اقتطفت ، فهى تذكرنى بأكاليل الموتى .

استقبلنا فى حديقة الدير راهب شاب مرح . القى ، فى البدء ، نظرة ارتياح ورضا على برميل النبيذ ، ثم سألنا من نحن . ولما عرف اننا طلاب استبد به الهلع ، وسأل :

— اعضاء فى الكمسمول ؟

رد رئيس اللجنة النقابية :

— الكل بدون استثناء .

— لا استطيع ادخالكم الدير . ملحدون فى بيت الله ؟ مستحيل !

قلت :

— لم ادفع بدل الاشتراك منذ شهرين . هل بوسعى الدخول ؟

فرد مبتسما : — بالطبع .

غضب رئيس اللجنة النقابية :

— لم نأت للصلاة ، بل للاطلاع على اثر تاريخى .

— ومن انت ؟

— رئيس اللجنة النقابية .

— طيب ، تفضلوا الى الدير . ولكن ، استحلفكم بالله ان تنزعوا قبعاتكم ، وتمسحوا احذيتكم . اياكم ان تكتبوا شيئا على الحيطان .

اتجه الراهب الى الكنيسة وفتح القفل ثم شرّع الابواب . رسم علامة الصليب ودمدم «تمجدت يا رب» ثم دخل الدير ، ودخلنا فى اثره .

نفثت الكنيسة فى وجوهنا روائح البخور والشمع ، فاصابنا ما يشبه الدوار . تسربت احزمة الضوء الشاحبة عبر الكوات الضيقة وتقاطعت على الارض ، مبددة العتمة التى توحى بجو من السرّية . القرون الخوالى تتطلع الينا بوجوه متغضنة مخددة ، وعيون واسعة خارقة الذكاء ، واياد رقيقة اشتبكت على الصدور .

سأل نستور :

— ماذا تعنى هذه اللوحة ؟

فرد الراهب :

— قيامة المسيح .

— لو حاول ان يقوم اليوم ! — قال شوتا .

غمغم الراهب متذمرا :

— هذه آخرتها ، لقد قلت انه لا يجوز ادخال الكمسموليين الى الكنيسة .

— لا تتشك ، ايها الصديق .

— اى صديق انا لك ؟ سمنى ابتى .

— وكيف اذن اسمى والدى ؟
— كيفما شئت . . .
— بالمناسبة ، الست قديسا ؟
— كل شيء بمشيئة الله . .
استفسرت تسيرا :
— ما هو موضوع هذه اللوحة ؟
— يهوذا يخون المسيح .
زفر السائق متحسرا وقال :
— هكذا هي الدنيا : لا يمكن ان تثق حتى باخيك من امك وابيك : يبيعك بقرش .
قال رئيس اللجنة النقابية بغتة :
— لا وجود للرب .
ساور تسيرا الشك :
— ولكن قيل ان الرب فى السموات ؟
— الطائرة فى السموات ، — هتف السائق .
— وهل انتم واثقون من ان الرب لا وجود له ؟ — تساءل الدليل وابتسم ابتسامة ساخرة . — كنت ، منذ ايام ، اسير فى الشارع . وفجأة سقطت حجارة امامى مباشرة . اتفهمون ؟ قيد شعرة منى . تصوروا ! لو سرت خطوة ، لا بل نصف خطوة لـ . . . ما رأيكم الآن ، هل الرب موجود ؟
— لو كان للرب وجود لما اخطأت الحجارة رأسك ، — قلت وخرجت من الكنيسة .
لا ادرى كيف انتهى هذا النقاش العلمى ، ولكن جميع الخارجين من الدير كانوا ، لسبب ما ، يشعرون بجوع كافر ، ويطالبون بالخبز .
مدت المائدة على العشب الاخضر ، واخرج كل منا عدته

وبدأت الوليمة . لم ننتخب تمادا ، بل قررنا ان يفصح كل منا ، بالتناوب ، عن افكاره .

كان السائق هو البادئ :

— انا انسان تعيس . كل مرة يشرب فيها الآخرون ، ويأكلون ويغنون ، اظل انا جالسا اتلمّظ لأن الشرب امر خطير بالنسبة لنا ، معشر السواق . . فلو سكرت الآن والقيت بكم جميعا الى الهاوية . . . يمكن ، بطبيعة الحال ، ايجاد عذر : الفرامل لم تشتغل او سبب آخر ، وحاول ، عندها ، ان تجد الحقيقة . ولكن هل يمكن خداع شرطي المرور ؟ سيقول : «انفخ ! ها ، سكرت ، يا صديقي ؟ اكيد سكران ! سندون هذا في المحضر : «كان السائق ، اثناء الحادثة ، في حالة سكر»» . وانتهى الامر . ويأخذون سائقكم الى اعلى عمارة في تبليسي .

سأل اوتار : — اية عمارة ؟ ذات الاحد عشر طابقا ؟

— الى السجن !

— ألم تر عمارة اعلى من السجن ؟ — سألت بدوري .

— كلا ، السجن اعلى عمارة ، فهو يطل على تشوكوتكا* .

— اى ، نعم . .

— اى ، نعم ! طيب ، صحتكم .

تتالت الانخاب : نخب الصداقة ، والحب ، والتراث ومنجزات العلم ، نخب الاجداد والآباء — انخاب لا تعد ولا تحصى .

رفض الراهب ، في البداية ، ان يشرب الخمر ، ولكنه بعد الكأس الرابعة تولى ، طوعا ، مهمة الساقي . كانت الوليمة على وشك الانتهاء ، حينما طلب الراهب الكلمة واسترسل في المونولوج التالي :

---

* تشوكوتكا — هي شبه جزيرة تشوكوتسكي في شمال شرق آسيا ، اقصى منطقة للبلاد . يضرب مثلا للمكان النائي . **المترجم** .

— فى هذا الدير شاه ايران عباس . . أتدرون لماذا تسمى القطعة من فئة العشرين كوبيكا «عباس» ؟ قطع الشاه رؤوس مائتى راهب جورجى ! لماذا ؟ . . مائتا راهب ، عدد غير قليل ! . . وكانت جدة الشاه جورجية . نعم ! هناك فى حفرة ، كان يقبع راهب ، لا يأكل ولا يشرب . . لماذا ؟

نفد صبر شوتا :

— اسمع ، يا اخ . انت راهب ام محاضر ؟ مالك تلح علينا بهذه «اللماذا» ؟ الله يعرف لماذا ! قل انت : لماذا ؟

— ولسوف اقول ! سأقول كل شيء ! المسألة فى غاية البساطة نخب من نشرب الآن ؟ . . نخب هذا البيت ! . . لينعم الرب على اهله بالسعادة . . باثنى عشر صبيا واثنتى عشرة فتاة . . . المسيح والرسل الاثنا عشر . انا راهب . . لماذا ؟

غفا الراهب قبل ان يتسنى له الرد على «اللماذا» الاخيرة . . . لكننى اعرف انه ما من امرأة فى الدنيا كان يمكن ان توافق على الزواج من هذا الراهب ، سليل انسان النياندرتال وما سبقه ، لذا لم يبق له خيار غير ان يصبح راهبا .

جاء دورى . اترعت الكأس وقلت :

— تحيا الشمس !

— عن اى شمس تتحدث ؟ الدنيا ليل الآن ، — قال شوتا .

لكننى كررت بعناد :

— ارى الشمس !

استحسن اوتار رأيى وهتف «عفارم» .

— ارى الشمس ! ويجب ان تروها انتم ايضا ، ان لم تكونوا عميانا ، بالطبع .

— نحن نراها ، بدون شك ، — وافق نستور ، وتطلع الى

القمر . قلت محتجا :
— كلا ، هذا قمر ، ويجب عليكم ان تروا الشمس !
رد نستور :
— انت سكران ، وهذا كل ما فى الأمر .
— انا شيو مغفيميلى* .
— انت زوريكيلا فاشالوميدزه ، — قال نستور .
— وانت سيرابيونا .
لم يكن نستور يعرف من هى سيرابيونا ، لذا لم يزعل .
— انا ذاهب الى البيت ، — قلت ذلك ونهضت .
وافق اوتار :
— رافقتك السلامة . الطريق عبر هذا الممر اقصر .
خاطبت تسيرا :
— هل تذهبين معى ؟ — فتساءل اوتار :
— ولماذا يجب ان تذهب معك ؟
— لم يطلب احد رأيك .
— تسيرا ، هل ستذهبين حقا مع هذا المجنون ؟
ردت تسيرا :
— سأبقى هنا .
فسأل اوتار : «معى ؟»
— كلا ، مع الجميع .
— وهل اوتار هو الجميع ؟ — قلت ساخرا .
— ولماذا اوتار وحده ؟ ها هو نستور هنا .
— انه نائم
انبرى اوتار :

* الاسم المستعار لشاعر الاطفال الجورجى المعروف شيو كوتشوكاشفيلى .
الناشر .

— اذن فانها تبقى معى .

فرددت عليه :

— سوف تغفو انت الآن .

قال اوتار «مستحيل» وتثاءب بصوت عال .

— بل سوف تغفو .

— هل اغفو يا تسيرا ؟

— اذا كانت لديك رغبة ، فنم !

استلقى اوتار على العشب واستسلم للنوم فورا .

— نم انت ايضا ، زوريكو . . . ارح رأسك ها هنا ، على ركبتى . . .

— تسيرا ، اريد خمرا !

قالت «اشرب» وناولتنى القدح .

— تسيرا ، انك فتاة جميلة .

— اعرف . .

— وانا قرد .

— اعرف . .

— لماذا تحبيننى اذن ؟

— لا اعرف . . .

— عاش عدم المعرفة ، عاش الجهل ، وعاش الرسوب ! عاش ايليكو وايلاريون وجدتى !

استيقظ اوتار وقال متبرما :

— اكلت مخّنا بايلاريونك .

قلت :

— تسيرا ، هيا معى . .

— الى اين ؟

— بلا وجهة . . نروح ؟

— اخاف .

— لا تخافي .

نهضت تسيرا وتبعتني متثاقلة الخطى .

— زوريكو !

— نعم ، تسيرا ؟

— زوريكو ، ما لك صامت ؟ اخجل ، اخجل جدا . . الا تحبني ؟ لماذا لا تريد ان تفصح ؟

— تسيرا ، انت فتاة رائعة !

— قديمة ، قلتها سابقا .

— تسيرا ، انت لا تحبينني . . انا ثمل الآن ، وعندما اكون ثملا اقول الحقيقة دوما . . . انت . . . انا . . انت فتاة جميلة . . لا اريد ان تحبيني . . . اتعرفين اني لست جديرا بحبك . .

— اسكت ، زوريكو . .

— انا سافل . . . ولكن لم يخطر على بالي انك قد تحبينني . اتعرفين اي انسان منحط انا . . انت طيبة . . . لديّ . .

— كلا ، زوريكو ، اسكت . .

— كلا ، بل يجب ان تعرفي الحقيقة . . لدي . . فتاة احبها . . . في القرية . . احبها أكثر من اي انسان على وجه البسيطة . . انها اغلى عليّ من حياتي . . . انت افضل منها ، افضل الف مرة . ولكنني احبها . انها قمري ، شمسي . . اسمها ماري . . يجب ان تعرفي ذلك . .

احتبست انفاسي من فرط التأثر ، وخنقتني عبرات مرة عقلت لساني . لم اعد قادرا على ان انطق حرفا واحدا ، فطأطأت رأسي والتزمت الصمت .

مكثت تسيرا متسمرة في مكانها اشبه بتمثال حجري . وكانت عيناها الزرقاوان الوسيعتان خاليتين من الدموع والعتاب ، ولم اقرأ

فيهما سوى الذهول . وبعد برهة انتفضت ودنت مني ولطمتنى بكل ما لديها من قوة . لم ابارح مكاني . غطت وجهها بيديها ودفنت رأسها في صدري وطفقت تنحب مختضة .

احتضنت تسيرا ، واقتدتها الى حيث كنا جالسين واقعدتها جنب اوتار ، ثم قبلت يديها بصمت ومضيت دون ان انبس بحرف .

دنوت من برج النواقيس القديم وارتقيت السلم الى الباحة العليا وملأت صدري بنسائم الليل العليلة ثم صرخت بكل طاقتي :

— ايهيهيـ - - - - ـه !

ردت الجبال :

— ايه !

مسحت على الناقوس المغطى بطبقة كثيفة من الغبار . اهويت بقبضتي على جانبه النحاسي ، فاطلق أنّة طويلة مكتومة . بغتة علت عيني غشاوة ودارت بي الدنيا . . . تشبثت بحبل الناقوس متحاشيا السقوط فأنّ :

— دن—ن—ن .

سحبت الحبل ثانية ، ثم ثالثة ورابعة ، فاخذ الناقوس يغني :

«دن . . دن . . . دن—ن» .

في البدء كانت الاصوات تنفلت قطرات فضية ، ثم اندغمت وتهادت كموجات متعاقبة ، لتملأ فناء الدير والليل وكل العالم المتسربل بضوء القمر . .

مكثت واقفا عند الناقوس اصغى الى اغنيته وارى الشمس ، واشعر انني افقد الوعي . . .

الحطب

كنا وايلاريون جالسين في فيء شجرة نتجاذب اطراف الحديث . ايلاريون مولع باحاديث العلم والسياسة والادب . وله تصوراته الخاصة

عن كل ظاهرة من ظواهر الحياة ، ورأسه محشو بنظريات من استنباطه . انه يزدرى بكل الأعلام ، سواى . بل انه فى بعض الاحيان يتطلع حتى الىّ بريبة لا يداريها ، فقد يتساءل ساخرا :

— اين قرأت هذا الرأى ؟

اذكر له المصدر .

— ايه ، ايه . . . ولكن الكتب ايضا يؤلفها بشر . فلا تكن مبالغا فى الثقة بها .

وبعد جهد جهيد اضطرته للاعتراف بكروية الارض ، بعد ان القيت عليه محاضرة دامت ساعتين حول الموضوع . كما انه يصدق بان المرء يمكن ان يبلغ امريكا اذا ما حفر ثقبا فى الكرة الارضية ومر عبر جوفها كله . ولكن ايلاريون غير قادر على ان يفهم لماذا لا يحفر الناس الارض ما دام الامر هكذا .

فى هذه المرة تشارك جدتى فى حديثنا . فقد اخذت مغزلها واقتعدت جذع شجرة الى جانبنا .

— طيب ، يا ابنى ، تقول ان الحيوانات ظهرت فى البدء على وجه الارض ثم ظهر الانسان . فمن كان يحلب البقر والماعز ؟

— لا احد . كانت صغارها ترضع قسما من الحليب ويسكب القسم الباقى .

— سامع ايلاريون ؟ الحليب يسكب !

— هذه سهلة ، اولغا ! اسأليه كيف صار القرد انسانا بفضل العمل !

— احكيلنا يا ابنى .

— القضية واضحة ! تطلعى الى ايلاريون وايليكو تفهمين كل شىء .

احتدم ايلاريون غيظا :

— اسمع يا ابن البارحة ! اذا لم تكن عندك مرآة فتطلع

الى وجهك القذر فى ماء البئر . الاحسن ان تحدث جدتك عن الحِكَم التى تعلمتها .

— ولكنكم لن تفهموا شيئا على اية حال .

كشر ايلاريون عن اسنانه وقال «تخجل ؟» رجته جدتى :

— اذن حدثنا انت ، يا ايلاريون .

— لا حادث ولا حديث ! لفق الولد كلاما ما انزل الله به من سلطان . من يسمعه يظن ان القرد جاع فبدأ يحرث الارض .

— سبحانك ! ويعدين ؟

— طبعا ، ما استطاع ان يحفر وهو على اربع ، فانتصب على قائمتيه .

— صحيح هذا يا ولدى ؟

— يكذب !

— هيك ، يعنى تنكر كلامك ؟

— هكذا شرحت لك المسألة ؟

— يا ريت لو شرحت هكذا . لم افهم نصف كلامك .

ضقت ذرعا ، ولكن ايلاريون واصل :

— نرجع للموضوع . اخذ القرد يحرث الارض .

— اين وجد فأسا ؟

— نسيت اسأله . . هيه ، ارعن ، اين وجد قردك فأسا ؟

— اين ؟ — اجبت — ذهب الى اوتسويا فى مخزن القرية وقال : «اسمع يا اخ ، اعطنى من فضلك الفأس التى سعرها ١٨ روبلا» .

فاستفسر ايلاريون :

— وهل كان اوتسويا ايضا قردا فى ذلك الوقت ؟

انبرت جدتى :

— اوتسويا قرد الآن ايضا . دفعت له ثمن كيلوغرام مسامير

فسرق قرابة ربع كيلو ولم يرد لي الفكّة .

— مرحبا يا جيران .

التفتنا فشاهدنا ايليكو يقف عند باب الحديقة مبتسما . تمعن فيه ايلاريون بنظرات فاحصة وسأل :

— ايليكو تشيغوغيدزه ، قلها دون لف او دوران : جئتنا عدوا ام صديقا ؟

— انت ، على اية حال ، بوسعك الا تقلق ، اذ ان من يضربك يدنس يديه . جئت الى جيراني طالبا النصح .

— اذن على الرحب والسعة .

اقترب ايليكو منا ، وحيانا ثانية تحية رقيقة وجلس على جذع شجرة . اخرج كيس التبغ من جيبه ووضع لنفسه حفنة ثم اعاد الكيس . اخرج من جيب آخر كيسا ثانيا ومده الينا متسائلا : «تدخنون ؟»

اخذ ايلاريون الكيس وشم التبغ ثم اعاده :

— تناول من هذا ، يا عزيزنا ايليكو ، ثلاث حفنات في اليوم فهو خير دواء لمن به داء مثل دائك .

استفسرت : «مفلفل ؟» فرد ايلاريون :

— كلا ، حشائش . طيب احكيلنا اية ريح جاءت بك ؟

لم يكلف ايليكو نفسه حتى عناء التطلع الى ايلاريون ، بل التفت الى جدتي وقال :

— هذا ليس بشرا يمكن التحدث اليه ، يا اولغا . شايفه كيف ينقط سما . ولو ان فمك ، والشهادة لله ، لا يسيل منه الرحيق ولكنك امرأة ، وامرأة حكيمة فانصحيني كيف اتصرف ؟ هل اهجر القرية الى الابد ام اقتل انسانا وادخل السجن ؟

— سبحانك يا رب ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . ماذا حصل ؟

— ستعرفين حالا . . هل كان سهلا عليّ ان انقل الحطب عبر النهر ؟ اذكر ان زورنكيلا ساعدني آنذاك . .

— وبعدين ؟

— بعدين ، هناك من يسرق حطبي . فاهمة ؟ هناك نصاب عديم الضمير يختلس الحطب ، ولم يقع في يدي . كم ليلة قضيتها ساهرا !

— استغفر الله . لهذا السبب تريد ان تقتل انسانا ؟

— سأمزقه باسناني ، لو وقع هذا السافل في يدي .

— ما عساي ان انصح ، يا ايليكو ؟ المتهم بريء حتى تثبت ادانته . .

— ولكن حطبي سرق !

— مفهوم .

حزم ايليكو امره ونهض متجها صوب الباب ، فصرخ ايلاريون في اثره :

— اجمع الحطب في غرفتك ، او الافضل ان تجعل منه سريرا .

— شكرا على نصائحك السديدة ، ايلاريون . لولاك لمت غما ، — رد ايليكو وخرج .

في مساء اليوم ذاته زارنا ايليكو ثانية وهو يحمل ديكا ضخما ذا مهاميز رائعة وعرف احمر قان . استغربت جدتي وسألت :

— ما هذا ، يا ايليكو ؟

— الا يبدو من هيئته انه ديك ؟

— وماذا حصل له ؟

— لم يحصل شيء . اصيب بكل الامراض في طفولته . عرّاك جيد وديك رائع . يجيد كل شيء سوى النباح ، ولو تعلمه لاصبح افضل من اي كلب ، فانه لا يسمح لاحد بدخول الفناء .

اريد ان اهديه لزوريكو .

احتجت جدتى وهى تلوح بذراعيها :

— ما عاز دجاجاتى المسكينات إلا هذا الديك .

بيد ان ايليكو لم يعد يسمعها . انتحى بى جانبا وهمس متسرا :

— زوريكيلا ، يا عزيز القلب ، يا وردة ، يا منقذ .

— ما الموضوع ، ايليكو ؟

— هل جلبت كبسولات من المدينة ؟

— لنفترض .

— كم ؟

— حوالى ثلاثين كبسولة .

— تنازل لى عنها وسأكون عبدا طوع يديك .

— هل تعتزم ان تكون قاطع طريق ؟

— لا تسأل ! .. تنازل لى عن الكبسولات واطلب ما شئت .

— اشرح لى الموضوع ، وخذ الكبسولات .

— ما تهتك سرى ؟

— عيب !

— ما تودينى فى داهية ؟

— انا اعملها بك ؟

— كلمة شرف ؟

— عيب عليك ، ايليكو !

— طيب . هيا معى .

... مكثنا ، انا وايليكو ، حتى الصباح جالسين عند كومة الحطب نرتشف النبيذ ونحفر الجذوع ، لنضع فيها الديناميت ، والكبسولات ، ونغطى الحفر بالطين .

كان ايليكو فى مزاج رائق تماما .

— وقع الفأر فى المصيدة ! اين المفر الآن ! انا اعرف

من يسرق حطبى ولكن ، والعهدة على القائل ، المتهم برىء حتى تثبت ادانته . لن تفلت من يدى الآن . زوريكيلا ، انا عبقرى !

— انا خائف ان تقتل هذه الكبسولات بشرا .

— لا تخش شيئا ، لن تقتل بشرا ولكن من يستحق سيرى بئس المصير .

— الرأى رأيك .

— زوريكيلا فاشالوميدزه ! اذا عرف انس او جن بموضوع الكبسولات فاننى سأنحر نفسى بمديتى ، وتتحمل انت الوزر . خل على بالك .

اقسمت اغلظ الايمان بان سأصمت صمت ابى الهول . .

. . . بعد مضى اسبوع كنا وايلاريون جالسين فى فناء بيته نقطر العرق . القدر النحاسى الكبير ينشنش جذلا ، والعرق العطر الحار يسيل من انبوب التقطير .

يحب ايلاريون العرق المركز . يغمس اصبعه بالعرق ثم يمده الى النار فاذا احترق العرق بلهب ازرق ، فهو جيد ، وان لم يكن ثمة لهب ، فيجب «تقوية» العرق .

الزمن يمر بسرعة . نضع بالتناوب اقداح النبيذ المكورة لنملأها من الانبوب ، ثم نبردها فى ماء صقيع ونرتشف الصهباء اللاهبة ببطء وتلذذ . هنا عند القدر ، ينبغى ان ترتشف العرق ببطء شديد ، تغلق عينيك وتظل ترتشف القدح ، حتى تتمايل الاشجار قليلا وترفع عقيرتك بالغناء كما يحلو لك ، وتتحدث بما يعن لك وتضحك لاى سبب كان .

اتخذت مكانى قرب الانبوب ، واقتعد ايلاريون موضعا عند القدر . اننا نتذوق العرق . الاشجار تتمايل الهوينا ، ونحن نضحك لاى سبب ، نغنى ثم نضحك .

— عامر هذا البيت !



— اهلا ، اهلا ! جرب ، ايليكو .

ناول ايلاريون الضيف قدحا ، فاخذه ايليكو وشرع يرتشف العرق ويتلمظ ويغمض عينيه كأي شرّيب محنك . ثم وضع القدح وقال بارتياح :

— نار لاهبة تطرح الفيل .

ابتسم ايلاريون ابتسامة رضى .

تنحى بى ايليكو جانبا وهمس بسرعة :

— اخذوه !

— اخذوا من ؟

— اخذوا الحطب ، يا غبى . انتظر الانفجار اليوم .

— غير معقول !

— اكيد . طيب انا ماشى ، افتح عيونك وآذانك .

خرج ايليكو وهو يكركر ويفرك يديه جذلا . قطب ايلاريون وجهه وتساءل :

— ماذا اراد هذا الاعور ؟ اما كان بوسعه الحديث بحضورى ؟

— ستعرف بنفسك عما قريب .

— ما الموضوع ؟

— سنسقط على قفانا من الضحك هذه الليلة .

— هات ما عندك بسرعة .

— طبعا ، ممكن ولكن . . . اصطبر قليلا ، المفاجأة سارة .

— بعت نفسك للاعور ؟ تف عليك وعليه .

تجهم ايلاريون وذهب ليجلب المزيد من الحطب . اترعت كأسى بالعرق ثانية ، فصرخ ايلاريون :

— كأنه عجل يمص من ضرع امه ! لماذا ورطنى الرب بهذا السكير ؟ اجلس هناك .

تبادلنا الاماكن . الحطب يحفحف وسط النار ، ويتطاير منه

الشرر . ها ان النار تناولت جذعا ولحسته بلسانها اللاهب . خشخش الحطب ثم اشتعل وتطاير منه طين . . زعقت :

— انبطح ، ايلاريون !

— ماذا حصل ؟

— انبطح !

انهبد ايلاريون على الارض . دوّى انفجار ، واعقبه ثان وثالث . . . اهتز القدر وانقلب في النار . اردت ان اصرخ ، بيد ان السخام ملأ حلقي . تلاحقت الانفجارات واحدا اثر آخر . كانت الجمرات المحترقة ونافورات الشرر تطاول عنان السماء .

استمر الهدير بضع دقائق . ولما هدأ كل شيء رفعت رأسي حذرا وتلفت فيما حولي . كان ايلاريون يدفن رأسه في الارض لا يتململ . هببت مذعورا ودنوت منه وقلبته على قفاه . فتح عينيه بالكاد ومرر يده على وجهه المعفّر بالتراب والسخام وانّ بصوت مكتوم :

— ماذا حصل ، زوريكيلا ؟

— الله يأخذ عمرك ، ايلاريون شيفاردنادزه . اى ابليس لعب فى عبك وجعلك تسرق الحطب من الاعور ؟ لماذا لم تخبرنى ؟

— حطب ؟ اى حطب ؟

— مثل اى حطب ، الحطب الذى كان فى فناء ايليكو . لو قلت لى يا ابليس يا ابا المناخير ! . . لقد امضيت الليل كله احشر فيه الكبسولات بيدى هذه !

— زوريكيلا فاشالوميدزه ، ما قصّرت . جعلت ايليكو تشيغوغيدزه يشرب من دمى ؟ والآن اغرب عن وجهى ما دمت حيا ، والا قلبت الدنيا على رأسك ، وجعلت الحجر يبكى لحالك .

انقذتنى صرخة منادٍ : «هيه ، يا صاحب البيت» . انفجر ايلاريون يزعق :

— من هناك ؟

— هذا انا ، ايليكو . جئتك طالبا النصح . هناك من يسرق حطبي . الا تعينني على مسك الحرامي ؟

صرخ ايلاريون : «سأقتلك» وركض نحو الباب .

. . . عاد ايليكو صباحا . تسلل ، كالثعلب ، الى فناء ايلاريون وتفقد موقع الكارثة الليلية وهز رأسه متعاطفا مع المبتلى ، ثم جلس تحت شجرة وشرع يخرج الكبسولات من الحطب الذى لم تأت عليه النار ، وقد رسم على شفتيه ابتسامة ملائكية .

الكنز

شهر حزيران هو شهر السعد لدى الفتى القروى الذى يدرس فى العاصمة . فقد ادى الامتحانات وحصل على منحة اشهر الصيف الثلاثة ، وغدا بوسعه ان يشد الرحال الى الديار مرتاح القلب والضمير . امامه الصيف كله والغزوات الليلية على بساتين الجيران ، الصيد والقنص . . . فى وقت ما كنت انا ايضا ، اثناء دراستى فى مدرسة ريفية ، ابتهج لحلول الصيف . ولكن منذ ان ربط القدر مصيرى بالمدينة فقد شهر حزيران كل مباهجه عندى . وهل ثمة ما يدعو للبهجة ؟ ثمة سيف مصلّت فوق رأسى طوال الصيف ، اذ على ان اعيد اداء الامتحانات فى دورة الخريف . ثم انه ينبغى على ان اصحح كل ما فى شهادة الامتحانات من علامات «مقبول» لأجعلها تقرأ «ممتاز» ، وبدون ذلك فالويل لى ان قابلت جدتى . وبعد ذلك يتوجب على ان اسمع ما يغمز به ايليكو وايلاريون حول منحتى («يبدو انك رفضت المنحة مرة اخرى ؟ . . .») . ثم ان ايلاريون لا يفوّت سانحة فى حضور جدتى دون ان يتحدث عن هيامى بالعلوم ومثابرتى ، ومدى ما بذله من جهد ، ابان مكوثه فى العاصمة ، ليجعلنى انفك عن القراءة . . واخيرا يترتب علىّ ، عند العودة الى المدينة ، ان اعيد تصحيح العلامات من «ممتاز» الى «مقبول» .

ولكن بما انه ليس لى فى هذه الدنيا غير قريتى وجدتى وايليكو وايلاريون ، فان على ان اذعن للواقع واشد الرحال اليهم . . .

ها انا ذا اسير على ممر متعرج يقود الى قريتنا . الارض والعشب وكل ما حولى ما برح نديا بقطرات المطر الذى هطل منذ امد قريب . ابتلت ثيابى وجسدى ، ورجلى تنزلق على الطين . الممر يصعد فى الجبل . استحث خطاى وارتقى السفح بما يشبه العدو ، وبغتة تنداح امامى قريتنا وكأنها منبسطة على راحة اليد . ترتعش ركبتاى وثمة غصة مرة تملأ حلقى ، فاقتعد حجرا . امكث جالسا ردحا طويلا اكفكف دموعى وانتظر . . . واخيرا تخرج جدتى من الدار . ازداد تقوس ظهرها ، ولكنها ما برحت تمشى بنشاط وخفة . اهب من مكانى والتقط شنطتى الفارغة واهرع هابطا وانا اصرخ «يا جد–ة–ة–ة» . دقيقة اخرى ونأخذ بعضنا بالاحضان . تبادر جدتى بالحديث :

— حى ترزق ، يا ولدى ؟

فيرد ايلاريون الذى بدا انه طلع من جوف الارض ، ليقول متهكما :

— انه حى ولكن لا يقر بذلك .

— اكيد جوعان ، وليدى ؟

— لا بأس عليه ، سوف اشبعه فى الصيف . . . سيأكل مع خنزيرتى سيرابيونا ، — يقول ايليكو وهو يفرك راحتيه جذلا .

— حدثنا عما استجد فى تبليسى . ما لك صامت وكأنك فى الامتحان ؟ — يتساءل ايليكو ، ثم يخاطب جدتى دون ان ينتظر الجواب : — اى نوع من الخمر اجلب ، اولغا ؟

فترد جدتى «كل الانواع» .

— بماذا حشوت الشنطة ، بالحديد ؟ — يقول ايليكو متهكما وهو يقذف بشنطتى وكأنها ريشة . فيلتقط ايلاريون الحديث :

— يبدو انها مليئة بالكتب .
— لا كتب ولا بطيخ ، — تهتف جدتى . — كفاه دروسا . ينبغى ان يرتاح الآن . الا ترون اى حال حاله ؟ جلد وعظم !
— طبعا ، طبعا ، الحق معك ، اولغا ، — يرد ايليكو ساخرا . — يا للطفل المسكين . كيف يمكن ان يعذب الانسان حاله بهذا الشكل ؟
وينبرى ايلاريون قائلا :
— ليتكم شفتم مكتبته ! عندما يدخل المرء الغرفة يسقط على رأسه كتاب اولا ، ثم حجر . انه ينفق على الكتب كل المصروف الذى يتسلمه من اولغا المسكينة .
— وليدى ، — تندب الجدة . — تهلك نفسك ؟ تجوع ؟ العن ابو الكتب ! الاحسن ان تأكل بالمصروف ، والا فلن ابعث لك قرشا واحدا .
وهنا اخشى العواقب فارد :
— ايلاريون شيفاردنادزه ، لا تخلق مشاكل .
— هذا من كثر حرصنا عليك ، — يقول ايليكو ، — الدراسة ضرورية ، اكيد ، ولكن الصحة اهم .
فاصرخ مستغيثا بجدتى :
— لخاطر الله حضرى الاكل بسرعة ، فقد تكمّ اللقمة افواه هؤلاء الابالسة الطاعنين .
— لحظة ، لحظة واحدة ، ولدى .
بعد دقائق تجمعنا المائدة لنلتهم الاكل اللذيذ بنهم . يتناهى الينا من الشرفة صوت يسأل «ممكن ؟»
— تفضلوا . من هناك ؟
تدخل الغرفة ماري وعلى وجهها امارات الفرح والخجل ، وقد تورد خداها ، وهى ترتدى بدلة جديدة جميلة .

— يا جدة اعيريني المنخل ، رجاء . . . مرحبا زوريكو !
— مرحبا ماري ، — ارد عليها وانهض من حول المائدة .
— ها هو المنخل معلق خلف الباب ، خذيه يا ابنتي .
— تفضلي ماري .
— شكرا ، مستعجلة .
— اوصل الفتاة — قال لي ايليكو .
ترفض ماري محتجة :
— كلا ، لا حاجة .
فيبتسم ايلاريون :
— الحاجة للمحتاج .
تنسى ماري المنخل وتلقي تحية الوداع على عجل وتخرج ، فاخرج في اثرها . تنتقل جدتي وايليكو وايلاريون الى الشرفة .
الحق بماري ، ونسير صامتين ونحن نشعر باربع عيون تتابعنا بنظرات حانية . .
. . . بعد ثلاثة ايام او اربعة من وصولي دخل ايليكو فناءنا وناداني :
— اين انت ، يا ارعن ؟
فانبرت جدتي تسأل : «ماذا تريد ؟»
كنت منطرحا على تخت انعم بالراحة .
— جئتك مترجيا ، يا عزيزتي اولغا . اعتزمت ان احرث ارض الكرمة ، ولكن يبدو انني عاجز عن ذلك لوحدي . . . اعيريني هذا الارعن ليومين ، قبل ان يصيبه الشلل من قلة العمل .
— انقطع لسانك ! كلا ، اخي ، ولدي زوريكو لم يعد صبيا ترسله حيثما تريد . انه طالب جامعي الآن .
— قمّطيه ودثريه ! طالب جامعي ، بعد عيني ! انا اريد مصلحته ، انا اخاف عليه من الصدأ ، وإلا طز عليه .

انبريت له :

— ما تحلّ عنى ، ايليكو ؟

— ارعن . تحب ان تشرب النبيذ ؟ اريد مصلحتك يا ناكر الجميل .

— ممنوع عليّ الشغل ! الحكومة بعثتنى الى هنا للراحة ، مفهوم ؟ اذا رآنى احد اعمل هنا ، وذاعت القضية فى المدينة فستثار ضجة .

— لا تقلق بالك ، البسك شعرا مستعارا ولن يعرفك الشيطان نفسه .

اضطررتُ الى الموافقة .

عملنا ، انا وايليكو وايلاريون ، طوال اليوم دون ان نذوق طعم الراحة .

— بكره تكونون هنا مع الفجر ، — امر ايليكو ، فاومأنا برؤوسنا وقصدنا البيت . سرنا صامتين . بغتة قال ايلاريون :

— كلا ، يا اخ ، القضية غير ممكن ان تدوم هكذا . يجب ان ندبر مخرجا والا قتلنا هذا الحقل اللعين .

— سيقتلنا بالفعل . فيه شغل مائة سنة .

— طيب اذن دبر مخرجا ، الم تصبح انسانا مثقفا ؟

— وما عسانى ادبر ؟ ليس ايليكو بالانسان الذى يُخدع بسهولة . .

— هذا صحيح . . .

مكثت عند ايلاريون حتى وقت متأخر . كنا نتلذذ بارتشاف النبيذ المبرّد من جرة صغيرة ، ونقدح الفكر بحثا عن طريقة للتملص من الشغل المضنى فى كروم ايليكو . قال ايلاريون وهو يترع الاقداح :

— عثرت على هذه الجرة تحت التراب . كدت اجن فرحا ، فقد اعتقدت اننى وجدت كنزا !

— وبعدين ؟

— ولا قبلين . . كانت الجرة محشوة بتراب عادى .
— فى العصور الغابرة كان ركاب السفينة الغارقة يكتبون رسائل ويدسونها فى قنانى يحكمون اغلاقها ويرمونها فى البحر .
— ثم ؟
— ثم يعثر شخص ما على القنينة ويقرأ الرسالة ويعرف مصير اولئك الناس .
انفرجت اسارير ايلاريون وهتف :
— ماذا قلت ؟ رسالة ؟ فى جرة مغلقة ؟
— ماذا دهاك ، ايلاريون ؟
هب ايلاريون وقلب المائدة واحتضننى وظل يقبلنى ثم اخذ يذرع الغرفة مقهقها جذلا .
— اصطبر ، يا ايليكو تشيغوغيدزه ، اصطبر ! سألعب معك لعبة لم يعرفها الاولون ولا الآخرون . قلت رسالة ؟ سأكتب رسالة اثأر بها عن كل ما فعل بى .
طفقت اتطلع مذهولا الى ايلاريون دون ان افهم ما جرى له . انفلت خارجا الى غرفة اخرى وعاد يحمل قصاصة ورق ومحبرة وقلما ووضعها على المائدة ثم صرخ :
— اجلس زوريكيلا ، اجلس واكتب ! كلا . ادْعك الورقة اولا .
— ايلاريون !
— ادعك ، ادعك . . تمام . افتحها الآن . . مضبوط . . . باشر الكتابة .
دخن ايلاريون سيجارة واتكأ على الحائط واغمض عينيه وطفق يملى :
— «انا ، ليفارسى تشيغوغيدزه ، اكتب هذه الرسالة قبل وفاتى . لم اعرف طعم البهجة فى حياتى . حرمت نفسى من آخر كسرة

خبز لأوفر قرشا ابيض لليوم الاسود . لم ارأف بنفسى ، وها اننى احتضر . لا يسرّى عنى الا شعورى بان تعبى لم يذهب ادراج الرياح . تحت حجر كبير عند شجرة التفاح دفنت جرة مليئة بالذهب . سيحل يوم ويجد ابنى الجرة . وقد لا يجدها . الاقدار بيد الله . حفظ المولى ولدى ايليكو . آمين» .

حدست مرام ايلاريون الشيطانى ، ولكن انتابتنى الشكوك فتساءلت :

— وهل سيصدق الرسالة ؟ سيفكر لماذا دفن والدى الذهب ؟ الم يكن من الاسلم ان يسلمنى اياه ؟

— ما كان بوسعه ان يفعل ذلك . فقد توفى ليفارسى المسكين قبل ان يكمل ايليكو سنته الاولى .

— طيب ولماذا لم يخبر زوجته ؟

— لأن كاكانو ماتت بعد الولادة مباشرة .

— كل شىء اذن ، على ما يرام . سيقع فى الفخ من كل بد .

لففنا الرسالة فى خرقة ورششناها بالماء ثم وضعناها فى جرة . احكمنا اغلاق فوهة الجرة وغادرنا الغرفة . . .

. . . فى صبيحة اليوم التالى كنا فى حقل الكروم فى الموعد المحدد بالضبط . قدم ايليكو لكل منا قدحا من الفودكا وحبة طماطم مخللة وقطعة من الخبز البارد ، ثم باشرنا العمل .

صعدت الشمس الى كبد السماء ولكن لم يكن فى نية ايليكو ايقاف العمل لنأخذ قسطا من الراحة . كنت اتطلع الى ايلاريون قلقا اخشى ان تفشل مكيدتنا ، حينما باغتنى رنين مريب احدثته معزقة ايليكو . اطلق ايليكو شتيمة ورفع معزقته وتملاّها ثم واصل العمل . سمعنا وقْع اناء يتهشم . برك ايليكو واخذ يتحسس بيده الارض بحذر ، واخرج فوهة الجرة اولا ثم الجرة المهشمة كلها وتطلع الينا مندهشا . تساءل ايلاريون الذى بدا عليه انه اكثر اندهاشا :

ما هذا ؟

لم يرد ايليكو ، بل استل الخرقة من الجرة وفرد الرسالة باصابع مرتعشة . خاطبته قائلا : «دعني اقرأها» ، فرد متبرما :

— حلّ عني ، انا احسن القراءة .

وشرع يقرأ : «انا ، ليفارسي تشيغوغيدزه ، اكتب هذه الرسالة قبيل وفاتي . لم اعرف طعم البهجة في حياتي . حرمت نفسي من آخر كسرة خبز لأوفر قرشا ابيض لليوم الاسود . . . لم ارأف بنفسي . . . وها انني احتضر لا يسرّي عني الا شعوري بان تعبي لم يذهب ادراج الرياح . تحت حجر كبير عند شجرة التفاح . . .»

اختض ايليكو وشرق وانتابته نوبة سعال .

— مالك توقفت ؟ اكمل قراءة الرسالة .

شحب وجه ايليكو وابتلع ريقه وتطلع الى ايلاريون بنظرات ساهمة .

— خبرنا ، ماذا في الرسالة .

مددت يدي نحو الرسالة ، ولكن ايليكو دفعها بعنف وقرب الورقة من عينه وقال بصوت مبحوح :

— «عند شجرة التفاح حيث الحجر الكبير . . . كنت امضي الايام والليالي . . . هكذا انقضت حياتي . . . حفظ المولى ولدي ايليكو . . . آمين» .

طوى ايليكو الرسالة بيد مرتعشة وخبأها في جيبه .

— لا افهم شيئا ، — قال ايلاريون — ما الذي جعله يدفن الرسالة في الارض ؟ اما كان الاولى ان يتركها على الطاولة ؟

لم اعد اطيق صبرا . تذرعت بالظمأ ، وقصدت عين الماء كيلا اقهقه فيفتضح السر .

اغربت في الضحك حتى آلمتني بطني ، فعدت الى الحقل ، وكان ايليكو وايلاريون جالسين على العشب يدخنان . نهض ايلاريون وقال :

— وصلت ؟ عالشغل بسرعة .

— اعتقد يكفي اليوم ، عزيزي ايلاريون . . اشعر انى اليوم متوعك . . .

— ما معقول !

اخذ ايلاريون يد ايليكو وجس نبضه ، فتظاهر هذا وكأنه فى النزع الاخير .

— استلق ، ايليكو ، وسنواصل الشغل .

— لا ايلاريون ، استريحوا انتم ايضا .

— وهذا كلام ، ايليكو ؟ ليس الآن وقت الراحة .

— قلت لك ، اذهبوا .

— نتركك وحدك مريضا ؟ ابدا !

ايدته قائلا :

— مستحيل .

— يا ابن الكلب ! اليوم صرت غاوى شغل ؟ يلّه عالبيت .

اخذ ايليكو يفقد صبره ، فشرع ايلاريون يتحدث بنبرة متعاطفة :

— هذا معقول ، ايليكو ؟ ما زال النهار فى بدايته .

— انصمت آذانكم ؟ قلت لكم روحوا للبيت ودعونى لحالى .

— لا يمكن ان نتركك وحيدا !

— ايلاريون شيفارندنادزه ! استحلفك بكل السموات والآلهة ، روحوا !

— وحقل الكروم ؟

— ليس شغلك .

— ماذا جرى لك ، يا شيخ ؟

خرج ايليكو عن طوره وزعق :

— حلّوا عنى . ولّوا عن وجهى . الارض ارضى وانا اصنع بها ما اريد ، سامعين ؟

— الامر امرك . . . نمرّ غدا ؟



— لا غدا ولا بعد غد ، ولا بعد اسبوع . ما اريد مساعدتكم . اتركونى لحالى ، ولّوا ! مفهوم ؟ ولّوا !

غادرنا الحقل مسرعين . . .

. . . انتظرنا الصباح بصبر فارغ ، وما ان لاحت بشائره حتى تسللنا الى بيت ايليكو وقد استبد بنا الفضول . كان قد ازيح من تحت شجرة التفاح حجر هائل لا يطيق على زحزحته عشرة جبابرة ، وبدت مكانه حفرة سوداء كبيرة . تناهت من الحفرة انفاس متلاحقة متعبة ، وتطايرت منها اكوام التراب . همس ايلاريون :

— لقد بدأ !

— يبدو انه قضى الليل يحفر .

نده ايلاريون : «ايليكو» .

طالعتنا فى البدء يدان ، ثم ظهر رأس معصوب بمنديل ، واخيرا طلع ايليكو نفسه من الحفرة .

— ماذا تريد ؟ اى مصيبة وراءك ؟

— جئت اطمئن عليك . . . اعتقدت انك مريض . . وانت . . . ماذا تفعل ، ايليكو ؟

— احفر بئرا .

— بئر ؟ عندك بئر وعين ماء ولا عين مثلها .

— عندى ، نعم ! والآن احفر بئرا احتياطية . مالى حق ؟

سألته بدورى :

— وحقل الكروم ، الن نعمل هناك ؟

صرخ ايليكو وهو يخرج من الحفرة :

— ولوّا ، ولوّا يا ظالمين

انسحبنا ، انا وايلاريون ، نكاد نختنق من مداراتنا للضحك . . .

. . . عمل ايليكو طوال الاسبوع دون رحمة بنفسه . تحولت الحفرة تحت شجرة التفاح الى بئر عميقة . ولما لم يجد ايليكو

هناك شيئا ، شرع بحفر حفرة اخرى . مضت ايام اخرى . كان منظر ايليكو مثيرا للشفقة ، فقد هزل وتشعثت لحيته ، وكان يجرجر خطاه بشق الانفس من فرط التعب .

قال ايلاريون :

— فى هذا الكفاية . سيموت الشيخ . يجب ان ننجز الامر هذه الليلة .

مع حلول الظلام لبدنا فى كمين بالقرب من شجرة التفاح وحبسنا انفاسنا واخذنا ننتظر النهاية المظفرة التى ستتكلل بها خطتنا البارعة .

عند انتصاف الليل سمعنا صريف باب يفتح ، وسرعان ما شاهدنا ايليكو . تسلل نحو الحفرة ، وكأنه فدائى يروم الانقضاض على عدو . وبعد لحظة توارى ايليكو فى الحفرة .

دنونا من حافة الحفرة ، وكانت تسمع فى الظلمة الحالكة انفاس متلاحقة وضربات مكتومة تصدر عند ارتطام المعزقة بالارض . وبغتة تناهى رنين من قاع الحفرة . تراجعنا الى الاحراش . بعد بضع دقائق طلع ايليكو من البئر زاحفا وهو يحمل جرة فخارية . اقعى تحت شجرة التفاح ورسم علامة الصليب ثم دس يده فى الجرة . . . للتو ارتسمت على وجهه امارات الكآبة والعذاب ، ونزع يده بسرعة وادناها من انفه . كانت ذراعه كلها ملطخة بمادة شيطانية هى نسخة طبق الاصل من المزيج الذى كنا قد تعرفنا عليه عن كثب ، انا وايلاريون ، ولكن فى ظروف اخرى .

مكث ايليكو جالسا وقتا طويلا دون حراك ملتزما الصمت مطأطئ الرأس . ثم شرع يتكلم بصوت خفيض وكأنه يحدث نفسه :

— ايلاريون شيفاردنادزه ! اخيرا انتصرت عليّ ؟ اخزيتنى امام الدنيا ؟ جعلتنى احفر بئرين من اجل هذا النتن ؟ — ركل ايليكو الجرة ، — اليوم يومك ! وليكن ! اعرف انك تلبد الآن فى مكان

ما فى الاحراش تكركر كالمهر . . . خير لك الا تبرح مكانك . اذا رأيتك قتلتك ، نحرتك . . . واين هذا السافل زوريكيلا ؟ معك بالطبع ، واين تراه سيكون ! . . لكن لستَ المُلام . . انا الارعن العجوز ، اتحمل الذنب كله ! صدقت بأن والدى الحافى من اصحاب الكنوز ! . . آخ ، لو هشمت هذه الجرة على رؤوسكم السافلة ، فان الموت بعد ذلك لذة . دعونى التقط انفاسى قليلا ثم تعالوا لتستمتعوا بالنصر ، ولكن يا ويلكم اذا جئتم قبل هذا ! لن يفلت منى واحد منكم حيا . اذا لم اقتلكم فسأقتل نفسى ، لا تتركانى ارتكب المعصيات .

نهض ايليكو وقصد الدار . التفت بغتة نحو الاحراش التى كنا نكمن فيها وقال :

— مع طلوع شمس الغد انتظركم فى الحقل . الويل لمن يتأخر ، يا تنابلة .

. . . طلعنا من الكمين واخذنا معزقتين وانفقنا الليل نحرث الارض فى حقل صديقنا المهذار الطيب .

باكيزو

لدينا ، انا وجدتى وايليكو وايلاريون ، بقرة مشاعة . اسمها باكيزو* . باكيزو بعمر جدتى . وان لم تكن كذلك فهى بعمر ايليكو فى احسن الاحوال . منذ سنوات خمس ترفض باكيزو باصرار اداء فروض الامومة . لم نترك طعاما إلا وقدمناه لها . لم ندع سائلا إلا ورويناها منه ، ولم يعنّ لنا دواء الا وسقيناها اياه ، ولكن عبثا ، اذ كانت باكيزو عازفة عن مواصلة سلالتها . ولكنها كانت ، رغم ذلك كله ، حلوبا ، لذا غفرنا لها تنكرها لاحاسيس الامومة .

* باكيزو — طاهرة ، نقية ، نظيفة . **الناشر** .

وطبقا لشرائع الشراكة فقد كانت باكيزو تسكن بالتناوب تارة عندنا واخرى عند ايليكو ، وتارة ثالثة عند ايلاريون . كانت تحب وتحترم كلا منا كما تحب الآخرين ، وتجوع لدى كل منا كما تجوع لدى الآخرين . وكان يندر لها مثيل في سهوها وشرودها . اذ كانت تدخل ، طيّعة ، اى فناء حالما ترى بابا مشرعا ، وتسمح لكل من هب ودب بحلبها ، اذا ما اقترب منها وبيده محلاب .

في هذا الصيف شقّت باكيزو عصا الطاعة ولم تعد تلقى بالا لأحد . بل انها لم تعد تدر حليبا ، وفقدت شهيتها وهزلت ، وانكى ما في الامر انها فقدت ذاكرتها : اذ كانت تجد مشقة كبيرة في التعرف على جدتي وايليكو وايلاريون ، اما انا فلم تكن تتعرف عليّ البتة . وباختصار ، بلغت من العمر عتيا ، بل وحتى شابت . حاولنا ، اول الامر ، ان نهديها واحدنا للآخر ، ولكن بعد ان تيقنا من عقم هذه المحاولات ، عقدنا في بيتنا اجتماعا حول طاولة مستديرة . افتتحت جدتي الجلسة قائلة :

ـــ لكلٍ أجَله ، وللبقرة ايضا . ماذا ترانا سنفعل بها الآن ؟

ـــ نبيعها ، ـــ قال ايلاريون ، فتساءل ايليكو :

ـــ ماذا نبيع ؟ العظام ؟ انها ليست من عاج الفيل .

ـــ ولماذا العظام ؟ نبيع اللحم !

ـــ ومن اين نأتي به ؟

ـــ اذن نسلمها للحكومة .

ـــ ومَن يستلمها ؟

ـــ اى ، نعم . . هذه مشكلة ايضا .

ـــ قد يعطونا ثمن جلدها ؟

ـــ يا ريت لو نَفَقَت .

رد عليّ ايلاريون :

ـــ ما عازني إلا مأتمها . لنسلمها ، وليقيموا لها تمثالا ان شاؤوا .

. . . بدأت الاستعدادات من الصباح الباكر . اخذتُ محسّة وشرعت انظف باكيزو وامشطها ، وسقاها ايلاريون ماء مملحا ، واطعمها ايليكو عشبا نضرا ، بينما كانت جدتي تدلك ركابها بماء دافئ . وفي الساعة الثانية بعد الظهر اخرجنا باكيزو المزينة والمنتفخة كالْلية الى الفناء وسط مظاهر الحفاوة والتكريم . كان علينا ان نقطع ما لا يقل عن ثلاثة كيلومترات حتى نصل مركز المشتريات الحكومية . ولكن لم نكد نكمل مائة متر حتى صرخت جدتي بغتة :

— قفوا ، يجب ان نعود بها !

— ما الخبر ، اولغا ، — تساءل ايليكو ، — سارت البقرة ، والحمد لله ، فهل من المعقول الآن ايقافها ؟

— نسيت ان احلبها ! ستتعذب المسكينة !

زعق ايلاريون :

— هات السطل ! بسرعة !

هرعت الى البيت وجلبت قدحا صغيرا . تناوبت جدتي وايليكو وايلاريون على حلب باكيزو طوال ساعة ، وكنت امسك بقرنيها كي لا تقع . واخيرا قُدم لي قدح مترع بسائل غريب عجيب .

— سوف نقتسمه فيما بعد ، — قال ايليكو ساخرا وهو يجر الرباط .

سارت باكيزو على مضض .

تجاوزنا القرية وخرجنا الى طريق واسع . وبغتة بركت باكيزو على احدى قوائمها ، ثم على الثانية واخذت تخور خوارا يبعث الشفقة .

عاتبها ايليكو :

— هذا وقت الصلاة ؟

فردت جدتي :

— صبرك ، دعها تستريح .

دمدم ايلاريون متبرما :

— على هذا المنوال لن نصل بعد اسبوع .

خاطبني ايليكو :

— شمّمها النشادر !

دسست قنينة النشادر في انف باكيزو ، فشخرت وهزت اذنيها ولكنها لم تبارح مكانها . اصدر ايليكو امره :

— افصد دمها !

اخرج ايلاريون مدية وفصد الدم من اذن البقرة ، فهبت قائمة وركضت . عندئذ تولت جدتي القيادة فصاحت :

— الاصغر سنا ، هرولة وراءها !

— امسكوها والا طارت ، — قال ايليكو ساخرا .

— بليّة على لسانك — ردت الجدة مستاءة .

هرولت باكيزو مسافة عشرين مترا ثم توقفت وسقت العشب على قارعة الطريق ثم عادت لتستلقي . قال ايليكو :

— امورنا زفت . بركتان اخريان او ثلاث مثل هذه ولن يبقى شيء نسلمه .

اغمضت باكيزو عينيها ، فاضطررنا لفصد اذنها الثانية . نهضت للتو وانطلقت تعدو على الطريق وسرعان ما اختفت وراء المنعطف .

اقتعدنا الارض ودخنا واخذنا قسطا من الراحة ، ثم واصلنا مسيرتنا على مهل . كان الطريق بعد المنعطف مستقيما ، ولكن لم يكن لباكيزو اثر . استبد بجدتي القلق فاستفسرت : «اين البقرة ؟»

استحثثنا الخطى . وصلنا منعطفا ثانيا ، فشاهدنا باكيزو اخيرا : كانت مستلقية في فيء حرش على قارعة الطريق مستسلمة للراحة .

— انهضي ، باكيزو ، — عرض عليها ايلاريون . [illegible] البقرة بنظرة من طرف عينيها وكأنها تتساءل : «هل [illegible] عقلك ، يا صاحبي ؟»

كرر ايليكو الطلب .

— انهضى ، انهضى !

لم تكلف باكيزو نفسها عناء الرد . فسألت جدتى بصوت حنون :

— الا تريدين ان تنهضى ، باكيزو ؟

هزت البقرة ذيلها بالنفى ، ثم طأطأت رأسها على الارض واغمضت عينيها .

أُسقط فى ايدينا ، فمكثنا صامتين .

مر بنا عابر سبيل ظل يتطلع الى باكيزو طويلا ثم سأل باشفاق :

— نفقت ؟

— بل هى نائمة بعد ليلة مسهدة ، — رد ايليكو .

رمقنا الرجل بنظرات مستريبة وتوارى بسرعة . انحنى ايلاريون وخاطب البقرة :

— طيب ، انهضى الآن .

واحتدم ايليكو غيظا :

— انهضى ، لعنة الله عليك .

لم تعرنا باكيزو اى انتباه ، فتركنا لغة الكلام جانبا وشرعنا بالعمل .

— ايلاريون ، قف من قبالتها .

— اسندها بكتفك .

— امسك قائمتها . الاخرى وليس هذه .

— والآن اسحبها من ذيلها .

— لمّم اطرافها .

— امسكى ذيلها ، اولغا .

— خذ قائمتيها الخلفيتين بيديك . قدمهما للامام . مضبوط . امشِ ، امشِ !

— تحمّلى ، باكيزو ، الخلاص قريب !

— ثم انك ، فى خاتمة المطاف ، لست عجوزا كما تدعين .

. . . عند حلول الغسق كنا قد وصلنا ، بشق الانفس ، الى مركز المشتريات . وعند بوابة المركز همّت باكيزو بالرقود مرة اخرى ، فهمس ايلاريون :

— النشادر . زوريكيلا ، يا سافل ، خلّ عينك مفتوحة .

— حلت عليكم اللعنة جميعا ، لم اعد اطيق ، — زمجرت متبرما ودلقت نصف قنينة النشادر فى مناخير البقرة .

انطلقت باكيزو من مكانها ودلفت الفناء راكضة .

— ضعها على الميزان . بسرعة ! — همس ايلاريون فى اذنى واتجه نحو مسؤول المشتريات .

— السلام عليكم . استلموا بقرة . . .

— العائلة ؟

— عائلة البقرة ؟

— مالكها !

— فاشالوميدزه ، تشيغوغيدزه ، شيفاردنادزه .

— الاسم ؟

— اسم المالك ؟

— البقرة !

— باكيزو .

تطلع المسؤول الى البقرة مقطبا وتساءل :

— ماذا يشبه هذا المخلوق ؟

— الا تشبه البقرة ؟ — رد ايلاريون مستغربا .

— هنا المصيبة ، انها تشبه البقرة وليست بقرة .

— نحيفة ، هذا صحيح ، — وافق ايليكو .

— ولماذا ترقد ؟

— انت خسران خسارة ؟ لن يزداد وزنها اذا رقدت على الميزان .

— لعلها نفقت ؟

— ما هذا الكلام يا ابنى ؟ — تدخلت جدتى فى الحديث .
— الم ترَ كيف دخلت الفناء راكضة ؟
— قطعت الطريق تعدو غير حافلة بشيء ، — اضاف ايليكو .
دنا المسؤول من الميزان وانحنى على البقرة وتفحصها ثم قال بصوت خفيض :
— نفقت البقرة . .
فاحتج ايلاريون :
— مستحيل . لعلها نائمة ؟
— قلت لكم انها انتهت ، لم تعد تتنفس .
— لعلك تريدها ان تشخر ايضا ؟
دنوت من البقرة وجسست نبضها . لم يكن هناك جدوى من النقاش .
— طلّعوها خارج الفناء ، — امرنا المسؤول .
حملنا باكيزو الى الطريق العام وتحلقنا حولها بصمت .
— اياكم ان تتركوا البقرة على الطريق ، — صرخ المسؤول من داخل الفناء . — ادفنوها فى الارض او عودوا بجثتها الى البيت .
. . . كانت بواكير النجوم قد اخذت تتلألأ فى صدر السماء حينما خرق ايلاريون اخيرا جدار الصمت :
— ينبغى ان ندفن باكيزو . . .
— واذا تركناها هنا وهربنا ؟ — عرض ايليكو اقتراحه .
فرد ايلاريون غاضبا :
— هذا مستحيل ! الراحل ينبغى ان يوارى التراب .
— يجب ابلاغ اقارب المرحومة ، — قال ايليكو ، وخاطبنى :
— اكتب نص البرقيات ، زوريكيلا .
استشاط ايلاريون وحمل على ايليكو :
— اضحك ، اضحك ، ابليس الاعور ! . لكن هذه البقرة ،

لعلمك ، كانت اعز عندى من امى ، فقد رضعت حليبها .

— احك اولغا ، ما العمل ؟ — ناشد ايليكو جدتى التى ظلت طوال هذه الفترة صامتة تمسح دموعها بكمها .

— ندفن المسكينة ، ولكن فى اى مكان ومن اين ننفق على الدفن ؟

— ايه . . . ايه — ندت عن ايلاريون حسرة .

لاح على الطريق صبى حافٍ كان يسير وهو يصفر مرحا . ندهه ايلاريون فاقترب الصبى منا .

— من اى عائلة ؟

— سيمونيشفيلى .

— واين تسكن ؟

— هناك . . . — اشار الصبى باصبعه الى مكان ما فى الظلمة .

— اسمك ؟

— مارات .

— احم . . الماراتات كثيرون عند ابوك ؟

— ست بنات وصبى واحد .

— بارك الله فيه ! . . شايف البقرة ؟

— وهل هذه بقرة ؟

— تأدب يا ولد ! من حليب هذه البقرة وجبنتها وزبدتها اكل مئات التنابل من امثالك . فاهم ؟ لا تتصور انها بقرة سائبة . نحن اصحابها . صحيح انها ميتة الآن ، ولكنها رغم ذلك احسن من احياء كثيرين ! فى بعض البلدان يعبدون البقرة . . . ما اسم هذا البلد ، زوريكيلا ؟

— الهند .

— نعم ، فى الهند يقيمون للابقار الصلوات . . . البقرة . . .

— يا عم ، قل ما تريد باختصار ، ما عندى وقت .

— انا شخصيا لا اريد شيئا . نريد دفن البقرة . . خذ عشرة روبلات ، وعد الى البيت واصطحب اخواتك واحملوا معكم معازق ومحاريث وادفنوا البقرة . مفهوم ؟

— عشرة روبلات قليلة . . .

— خذ عشرة اخرى .

— قليل . . .

— هذه خمسة اضافية .

— قليل . . .

— طيب ، نضيف ثلاثة .

— قليل . .

— كيف قليل ، ابن الكلب ؟ ثمانية وعشرون روبلا عن بقرة واحدة نتنة ، هذا قليل ؟

— اذن لتبق منطرحة كما تشاء ، — قال مارات وهم بالانصراف .

— قف ! تعال يا سافل . كم تريد ؟

— خمسين روبلا .

— خمسين روبلا ؟ ! — كز ايلاريون على اسنانه وعد خمس ورقات من فئة العشرة روبلات سلمها للصبي وقال : — تواريها الثرى هذه الليلة !

— الوقت متأخر . . سأطمرها فجر الغد .

— لن تطمرها بل ستواريها الثرى يا ابن الكلب ! . . . والآن خل بالك عندى واذكر : سوف اعود الى هنا صباح الغد ، واذا لم ار قبرا فى هذا المكان فسوف احرق عائلتك فردا فردا .فهمت ؟

— فهمت ، — قال مارات وتوارى فى ظلمة الليل .

. . . بعد مضى اسبوع وقفت على الشرفة واخذت اقرأ لجدتى وايليكو وايلاريون اخطارا من مفتشية الصحة فى القضاء سلمنى اياه

للتو فراش المجلس القروى ومعه اشعار غرامة :

«الى المواطنين فاشالوميدزه وتشيغوغيدزه وشيفاردنادزه . في يوم كذا من شهر حزيران من عام كذا تركتم على الطريق الرئيسية فى القضاء جثة بقرة لا رقيب عليها ، مما جعل المنطقة المذكورة عرضة لتكون بؤرة مرض وبائى . كما نشعركم بانتشار رائحة لا تطاق مما دفع السكان الى التشكى ، وهم على حق فى ذلك . نظرا لما تقدم اوقعنا عليكم غرامة مقدارها ٣٠٠ روبل .

توقيع «رئيس اطباء مفتشية الصحة فى القضاء»» .

بعد دقيقة صمت قال ايليكو :

— يبدو لى ان ايلاريون هو الذى سيدفع الغرامة كلها .

— ولماذا ايلاريون وحده ؟ — تساءلت جدتى .

— لان البقرة كانت اعز عليه من امه ، فقد رضع حليبها .

رد إيلاريون بصوت كالفحيح : — ومن الذى اقترح تسليم البقرة ؟

فذكّرته قائلا : — انت صاحب الاقتراح .

لم ينبس ايلاريون بحرف . قفل عائدا الى منزلـه واغلـق الباب عليه وامضى النهار هناك .

جبنا انا وايليكو المنطقة ، ومشينا زهاء عشرين كيلومترا ، وكنا نستوقف كل صبى نصادفه ونستفسر منه بلطف عن اسمه ولكننا لم نسمع ، بالطبع ، اسما يذكّر بمارات ولو من بعيد . . .

لم اعد الصبى القروى زوريكيلا . انا الآن شاب راجح العقل احمل شهادة جامعية . تنص الشهادة على اننى ، زوراب فلاديميروفيتش فاشالوميدزه ، اقتصادى ، وان شهادتى سارية المفعول فى اى جمهورية ومدينة وقرية بالاتحاد السوفييتى . تزين صدرى شارة الجامعة . ولم ينتابنى اطلاقا شعور بالاسف عندما خرمت ثقبا فى بدلتى الجديدة لاضع الشارة .

ها انا عائد الى قريتي حيث تنتظرني ، كما تُنتظر الشمس الساطعة ، بفارغ الصبر جدتي وايليكو وايلاريون وماري . سوف اعود الى اهلي وازرع امام الدار كرمة واجني بعد ثلاث سنوات اول محصول من عنب «تسوليكووري» . سوف اسكن القرية واعمل هنالك وسيكون لي دار وفي الفناء كلب اسميه مرادا . ستكون لي ماري واثنا عشر طفلا : احد عشر صبيا وفتاة جميلة زرقاء العينين اسمها تسيرا . سوف اقصد المدينة في سفرات كثيرة لأعود محملا بالهدايا والكتب لزوجتي واطفالي . وساجلب لجدتي ايضا هدايا تستدر من مآقيها دموع الفرح .

كما ساحمل الهدايا لايليكو وايلاريون . هدايا تجعلهما لا يجرؤان على ان يسخرا مني . سوف ازور الخالة مارتا واحمل لها هدايا من جدتي ، ولسوف تذرف الخالة مارتا ايضا دموع الفرح .

ثم سوف أُسكِن الجميع : ايليكو وايلاريون والخالة مارتا في داري . سنحيا سوية . سيكون لي الكثير من الاولاد والاحفاد واحفاد الاحفاد . سوف نكون كثيرين ، كثيرين جدا ، قرية باكملها ، ثم سيزداد عددنا ، سنكون العالم كله . لن نموت ابدا ، سوف نحيا ابد الدهر . . .

هذا ما يدور في خلدي ، انا زوريكيلا فاشالوميدزه ، وانا اغذ السير على الشعب المفضي الى قريتنا . الشعب يصعّد في الجبل . اصل الى القمة واقتعد حجرا وارى قريتي وبيتنا وكأنهما على راحة اليد . ثمة عمود من الدخان الازرق يتصاعد فوق بيتي ولكن جدتي ليست في الفناء . امكث جالسا امدا طويلا ثم اخف منحدرا .

— يا جد—ة—ة—ة !

ما من مجيب . ارتقي السلالم راكضا . الصمت مطبق . ادلف الغرفة . الظلمة تلفها . جدتي راقدة على السرير . انحني عليها ، انها نائمة . اخرج على اطراف اصابعي الى الشرفة وارى ايليكو

وايلاريون ، فاقول باسما : «مرحبا» ، فيردان بفتور «مرحبا» .

— ماذا حصل ؟

— ساءت احوالها مساء امس . . . فكرنا انها لن ترى نور الصباح . . . استلمت البرقية ؟

— اى برقية ؟

رد ايليكو متلعثما :

— ساءت احوالها كثيرا ، كانت تحتضر . . .

انفلتّ نحو الباب .

— لا تدخل ، دعها راقدة .

جلست منصاعا .

. . . ظلت الجدة نائمة حتى المساء . فتحت عينيها بغتة وطفقت تحدق فيّ . تملتني طويلا ثم تساءلت بصوت خفيض :

— ايلاريون ، هل انا فى حلم ، ام ان هذا ولدى حقا ؟

— هذا انا يا جدة ، — اجبت وانكببت على صدرها .

— وصلت ، حبيبى ؟ لعل قلبك اعلمك ؟ اكيد ! جاء أجَلى . . . ايليكو ، أطعمتم الصبى ؟

— اطعمناه ، اولغا .

— سقيتموه نبيذا ؟

— رفض . .

— لماذا ، ولدى ؟ رح اشرب . صنعته لك . . . اشرب بالهنا والشفا . . . وضيّف الجيران فى مأتمى . . .

— ما هذا الكلام ، جدة ؟

— طفرت الدمعة من عينه . . . كبرت وما زلت طفلا . . صفيتُ حسابى . . . ثلاث وسبعون سنة غير قليلة . . كفاية . . . ورغم ذلك ، سامحنى يا رب ، لم اشبع من الدنيا . . . هذا هو قلب البشر . . لو اعيش ولو كم شهر . .

— ما هذا الحكى ، اولغا ؟ — حاول ايلاريون ان ينكت . — تدفنين عشرة من امثالنا .

— ايلاريون شيفاردنادزه ، امسح دموعك اولا ، ثم نكّت . . .

— وسألتنى : — خلصت الجامعة ، ابنى ؟

اخرجت الشهادة من جيبى وسلمتها لجدتى . ربّتت عليها بحنان ثم اعطتها الى ايلاريون ورجته ان يقرأها . قرأ ايلاريون الشهادة ثم اعادها . التزمت جدتى الصمت امدا طويلا ، وكانت الدموع تنحدر سيلا رقيقا على صدغيها . اعادت لى الشهادة وقالت :

— اجلس الآن يا ولدى ، واصغ الي . . . سافارق الحياة قبل الصباح . احمد الله الذى ابقانى على قيد الحياة حتى وصولك . لم اكتب وصية ، ولكن كل ما تراه حولك هو ملكك . .

— كل شيء الى الجحيم ، اذا لم تبقى انت ، — وانكببت على سرير جدتى وانا انتحب .

— ينفع ، كل شيء ينفع ولدى . . طيب ابكِ ، ابكِ . الحفيد يجب ان يندب جدته . . كفاية ، كفاية ، ولدى ، — مسحت جدتى على رأسى بحنان . — لا تفقد هذين الانسانين يا ولدى . ايليكو وايلاريون ، حياتهما من حياتك . احببهما واتبع نصحهما دوما .

دفن ايليكو وايلاريون رأسيهما فى الحائط وظلا ينتحبان كالاطفال .

— اتركونى مع ولدى . . . — لم يبرح ايليكو وايلاريون مكانهما .

— اطلعوا بره ، يا ابالسة يا عور . عملها احد قبلكم : تدفنون البشر وهو حىّ ؟

تُركنا وحيدين .

— اقترب منى ، ولدى . اريد ان اقبلك . . .

انحنيت على جدتى ، فغمرتنى بالقبل : قبلت جبهتى وشعرى وعينى ووجهى ويدى . ثم اخذتنى بين احضانها وظلت تعانقنى فترة

طويلة ثم قالت :

ـــ اعطنى قدح نبيذ .

اعطيتها حليبا . شربت جدتى الحليب ثم قالت :

ـــ اعطنى الآن نبيذا .

اترعت قدحا ، اخذته جدتى ثم قعدت على الفراش ومدت يديها الى السقف وابتهلت :

ـــ يا رب ، ايها العزيز القدير ، يا امّنا ، ايتها البتول . . اليكم اوكلت ولدى . . منّوا عليه برعايتكم . . . خذوا بيده فى الملمّات . . اطيلوا فى عمره وعمر ذريته . . . آمين .

ارتشفت جدتى جرعة من النبيذ واعادت اليّ القدح ، ثم قالت بروّية :

ـــ اطف النور واطلع . .

امتثلت لامرها . عدت بعد بضع دقائق فوجدت جدتى هامدة بلا حراك .

انحنيت ومكثت طويلا اتملى وجهها الحبيب . ثمة من دخل الغرفة وتوقف خلف ظهرى . تناهت الى سمعى انفاس تتلاحق ، واحسست ان هذه الانفاس ستظل ترافقنى طوال حياتى . لم التفت ، بيد اننى كنت واثقا من انها ماري ، ماري حبيبتى التى بددت بنورها ظلمة الغرفة . ولكننى التفت فيما بعد ، التفت لاغتسل بهذا النور واري من خلاله احبائى ايليكو وايلا ريون وجدتى . . .

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتي





ولد نودار دومبادزه ، الحائز على جائزة لينين فى الأدب ، عام ١٩٢٨ فى تبليسى عاصمة جورجيا وهى جمهورية بجنوب الاتحاد السوفيتى .

وقد اشتهر [illegible] بعد صدور روايته «البكر [illegible] وجدتى وايليكو وايلاريون» ، التى تتناول طفولة وفتوة صبى جورجى يتيم فى سنوات الحرب ضد الغزاة الفاشست .

وأشار النقاد أن الرواية غدت «بمثابة أغنية [illegible] تلقفها الشعب كله ، تلقفها جمهرة القراء الغفيرة فى بلادنا المتعددة القوميات»

